

سلمى الغزاوي

# تيلاندسيا

رواية

# تيلاندسيا رواية سلمى الغزاوي

تيلاندسيا

رواية

تأليف :

سلمى الغزاوي

تحرير أدبي :

سندس جمال الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

رقم الإيداع: 2016/19994

الترقيم الدولي: 3-000-820-977-978



إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

\*\*\*

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 0235688678-

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة  
كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من  
الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

# إهداء...

إلى جورج.. الذي أرداه حلمه

إلى زملائي في الدراسة الجامعية، أبناء دولة مالي العريقة: راقية، يحيى،  
الطاهر.. الذين عرفوني على سحر القارة السمراء.

إلى شام الياسمين، الصامدة دوما وأبدا.

إلى جبال الريف الشامخة على مر العصور.

وإلى كل من يحمل حلما على كتفيه.

# في طريق الحلم

وسحابُ الخير له مطر.. فإذا جاءَ الإِبَّانُ تجي

(ابن النحوي)

-١-

تمايل المركب على صفحة المياه اللازوردية كراقصة خجلى تخطو أولى خطواتها في عوالم الليل، أحسست بالبرد القارس يتسلل إلى عظامي، انكملت في مكاني وأنا أتأمل انعكاس ضوء الفجر على الأمواج الصغيرة، ترنح المركب مرة أخرى، كدت أسقط، أمسكتني إحدى المرشحات للهجرة، كانت حبلى في شهرها الأخير، وعلى ما يبدو كانت تأمل أن يتواطأ الطلق معها ويفاجئها ما أن تصل إلى الضفة الأخرى لعلها تضمن البقاء هناك رفقة مولودها، الذي سيتحول إلى جوازها، لذلك يلزمه أن يكون محظوظا بما يكفي ليخرج إلى الوجود في الزمان والمكان المناسبين، اهتز المركب المثقل بعشرات المرشحين للهجرة السرية القادمين من دول جنوب الصحراء، تذكرت قصيدة «المركب الثمل» وابتسمت، هزت المرأة الحبلى كتفي وقالت بحماس:

- انظر، يبدو أننا حققنا حلمنا أخيرا.. الفردوس المفقود يلوح في الأفق!

خفق قلبي بسرعة جنونية، لم أصدق ما رأيته، كانت هناك جزيرة متلائة ممتدة على مرمى البصر، نظرنا مدهوشين إلى بعضنا البعض، انتابتنا مشاعر متضاربة، اقتربنا أكثر من الجزيرة اللامعة، فجأة، هبت عاصفة قوية، حاول القبطان تفادي غرقنا لكن كل محاولاته ذهبت سُدى، كانت الرياح والأمواج المتلاطمة أقوى بكثير من مركبنا الهش الذي انقلب بسرعة، لنجد أنفسنا نصارع الموت في عرض الساحل، حاولت أن أنقذ المرأة الحبلى، مددت إليها يدي لكنها أفلتتُها، وقالت ووجهها تعلوه شبه ابتسامة ساحرة:

- حتى في الأحلام يحدث أن يلاحقك الموت، قدرك...

ثم اختفت في أعماق البحر.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أسبح إلى الضفة الأخرى، إلا أن الجزيرة كانت تبتعد أكثر فأكثر كلما خلت أنفي أو شك على بلوغها، إلى أن تلاشت كالسراب، لأجد نفسي ملقى على يابسة قاحلة بعدما لفظني البحر الذي ابتلع حلمي.

ظللت ممددا على ظهري كالحي الميت، بعد ذلك تنهى إلى مسامعي صوت أحدهم وهو يقول لي بلهجة غاضبة:

- انهض يا صديقي، إن هذا المقام الشريف ليس مخصصا للنوم!

فتحت عيني، كان يقف أمامي رجل يرتدي جلبابا بنيا، اكتشفت أنني غفوت وأنا أسند ظهري إلى سارية رخامية بضريح «المولى إدريس»، فكرت في أن

البعض يحرصون دوماً على إيقاظك من أحلامك، كأنما خُلقوا فقط لقص  
أجنحة الحلم.

وقفت على قدمي الملتهبتين بعناء وانتعلت حذائي، لأواصل رحلة تيهي في  
أزقة المدينة العتيقة لفاس، قبل أن أغادر الضريح، طلبت من «المولى  
إدريس» أن يساعدني على تحقيق حلمي في العبور حيا إلى شبه الجزيرة  
الإيبيرية، كان قد مر شهر على وصولي إلى العاصمة العلمية المغربية «فاس»،  
«فاس» التي لطالما أيقظت بداخلي ذاك الحنين الحارق إلى مسقط رأسي في  
مالي «تمبكتو»، ملتحق الأساطير، مهد الحكايات الجميلة، جوهرة الصحراء  
التي غادرتها رغما عني، لأحقق حلمي بمستقبل أفضل، ذلك الحلم الذي انبثق  
من واقع مرير.

شربت من عين ماء صغيرة توجد قرب الضريح، كانت قدمي النازفتان  
بسبب رحلتي الطويلة تؤلماني كثيرا، كان عليّ أن أعثر على مكان ليس  
ببعيد لأمضي ليلتي، إذ لم أكن قادرا على الالتحاق بأصدقائي المهاجرين في  
الحديقة التي كنا نبيت بها لأنها بدت لي بعيدة.. كحلمي.

\*\*\*

## - ٢ -

واصلت رحلة ضياعي، كنت أسير كالمنوم، لم أتوقف إلا بعد أن اشتدت وطأة  
الآلام المنبعثة من قدمي المنتفختين، جلست على عتبة باب متجر مغلق  
لألتقط أنفاسي الواهنة ولأفحص قدمي، خلعت حذائي الرياضي المشقوب

واكتشفت أن الدم تسرب من الضمادات ليلطخ جوربي، ارتديت الحذاء مجددا بصعوبة ووقفت بعدما استندت إلى جدار، أكملت سيرتي وأنا أشعر بأنني أتماهى مع كلب شريد قُطعت إحدى قوائمه، أخيرا وصلت إلى ساحة «أبي الجنود»، تسلت روائح الأكلات المغربية الشهية التي تقدمها المطاعم الشعبية وبعض العربات إلى مسام أنفي وأشعلت بداخلي إحساسا لا ينقطع بالجوع، دسست يدي في جيبي لأعرف كم تبقى لي من نقود، لم أعر إلا على درهم واحد، تذكرت أنني ألقيت كل ما كان في حوزتي من دراهم في صندوق «المولى إدريس»، ذاك الصندوق الموجود بمعظم الأضرحة والذي كثيرا ما أسميئه: صندوق الأمنيات. شعرت بالبرد ينخر عظامي، لعنت غبائي الذي جعلني أترك حقيبتتي المحتوية على الملابس القليلة التي جلبتها معي في عهدة صديقي ورفيق رحلتي «عبدول».

أحسست ببوادر الإغماء، لم أتمكن من الاستمرار في مقاومة الجوع والبرد، لم يتبق أمامي سوى أن أطلب من أحد أصحاب عربات الطعام إعطائي قليلا مما يبيعه لأستطيع استئناف سيرتي، اقتربت من أحدهم، كان يبيع شوربة الحلزون بالأعشاب، وقفت أمامه وأنا أرتجف، نظر إلي قليلا وسألني:

- ألدك نقود؟

هزت رأسي نافيا، نزع غطاء الطنجرة وأخذ وعاء صب لي فيه مرقا ساخنا، أمسكته وشربته دفعة واحدة، دبّ الدفء في أوصالي من جديد، أعطيته الوعاء وشكرته بحرارة، قبل أن أنصرف، سألتني مجددا:

- لاحظت أنك تجيد العربية، من أي بلاد قدمت؟

أجبتة:

- أنا أمازيغي لكنني درست اللغة العربية وعلوم الدين، أتيت من «مالي» طالبا للهجرة.

ابتسم قائلا:

- حفظك الله يا بُنَيَّ.

ودعته، كنت لم أسمع كلمة «بني» منذ زمن، مذ قُتل أبي خطأ في إحدى التفجيرات الانتحارية بثمبكتو، تحسست القلادة التي تحمل الحرف الأول من اسمي «مامادو» بخط التيفيناغ، كانت تلك القلادة هي كل ما تبقى لي من أبي.

سرت على غير هدى، تقاذفتني متاهة المدينة العتيقة، اختلط التراب بدم جراحي النازف، لم أبال، اعتدت الألم، مررت بمحاذاة مقبرة، لوهلة، فكرت في أن أقضي ليلتي فيها، لكنني سرعان ما طردت هذه الفكرة من رأسي المنهك، لأن وحشة وسكون المقابر لا يزالان قادرين على بث الرعب في نفسي منذ الصغر.

سرت طويلا فوق جراحي التي صارت جزءا لا يتجزأ مني، توقفت أمام المحطة الطرقية لفاس، قررت أن أمضي ليلتي بها، افترشت التراب، التحفت النجوم وتوسدت حقيبة حلمي، في انتظار إشراقة صبح جديد.

أنا المنتظر.. التائه في دروب الحلم.

\*\*\*

### - ٣ -

أفقت في الصباح الباكر بعد أن هُيئ لي أني سمعت صوت أبي وهو يقول:

- قم يا بني لتكسب قوتك.

نهضت من مكاني، كانت عظامي تؤلمني كثيرا، نفضت ملابسي من التراب العالق بها ووقفت أتلفت يمينا ويسارا، كنت متعبا وحائرا، لم أعرف ما عليّ فعله لأكسب قوتي بعرق جبيني، النقود التي جلبتها معي صرفت معظمها في الطريق إلى فاس، والباقي كان بالكاد يكفيني لأبتاع الطعام، ثروتي الصغيرة المتبقية التي خبأتها بحرص في حقيبتني لا تتجاوز مئة درهم على أقصى تقدير. فجأة، تراجلت سيدة خمسينية ممتلئة من إحدى سيارات الأجرة، كانت تمسك حقيبة سوداء بعناء واضح، نظرت نحوي قبل أن تشير إليّ، تقدمت نحوها وألقيت السلام، طلبت مني أن أساعدها في حمل الحقيبة ريثما تعثر على سيارة أجرة تقلها إلى خارج المدينة، حملت الحقيبة وبقيت واقفا إلى جانبها حتى وجدت ضالتها، وضعت حقيبتها داخل صندوق السيارة وقبل أن أنصرف مدت لي يدها وبها عشرة دراهم، ابتسمت لها شاكرا، وعدت إلى مكاني في انتظار مسافرين محتملين، في ذلك الصباح ساعدت أربعة مسافرين على حمل حقائبهم حتى الحافلات وسيارات الأجرة، وتمكنت من كسب مبلغ يكفيني لتناول وجبة الغداء، نظرت إلى ساعتني اليدوية البلاستيك، كانت عقاربها تشير إلى الثانية عشرة، لم أبارح باب المحطة إلى

أن أتى رجل أربعيني ضخم، أمسك بتلابيبي وسألني والشرر يتطاير من عينيه المحتقتين:

- من أتى بك إلى هنا أيها الزنجي الغريب؟

نظرت إليه بتحد وأجبتة:

- جئت لأطلب رزقي، الرزق من عند الله..

رد علي:

- هذا المكان يخصني أنا أيها «الإفريقي»، ولن أسمح لك باحتلاله، أما إذا كنت مُصرا فساوسعك ضربا!

كان بوسعي أن أكسر عظامه، إلا أنني تذكرت وصية أمي لي بعدم إثارة المشكلات حتى أعبّر بسلام إلى الضفة الأخرى، دفعته، بصقت قرب حذائه ثم غادرت.

كان الغضب المشتعل في جوفي هو محركي، لم أعرف كيف وصلت إلى ساحة «أبي الجنود»، تخطيت هذا الباب التاريخي وولجت أول مطعم مررت قربه، اخترت طاولة وارتيمت فوق الكرسي، كان المكان غاصا بالسائحات والسياح القادمين من أوروبا، أوروبا قبله أحلامي، إحداهن كانت تجلس وحيدة، كانت امرأة سهباء سمينه، قدرت أنها في أواخر الخمسينات، ظلت توجه إلي نظرات شهوانية كما لو كنت قبلة جنسية آيلة للانفجار في أية لحظة، عرّتني نظراتها، كانت تنظر إلى بنفس الطريقة التي تأكل بها، بشراهة منقطعة النظير.

قدم النادل، طلبت منه أن يجلب لي طاجين دجاج بالبطاطس المقلية، جلبه لي بعد لحظات مع خبز ساخن وقنينة ماء، تلذذت بالطاجين وتحاشيت نظرات المرأة الأجنبية التي تعاني من الوحدة، تذكرت طبق الدجاج المشوي بالأعشاب المرفق بالبطاطس الذي كان من بين أطبائي المفضلة في «مالي»، أنهيت وجبتي بسرعة، شربت الماء، غسلت يدي وحاسبت النادل، وغادرت المطعم وأنا أشعر بنظرات الأجنبية لا تزال تخرقني.

في طريق عودتي إلى الحديقة التي كانت تحتضننا ريثما نعثر على سكن مؤقت، شددت انتباهي إحدى فرق كناوة وهي تؤدي عرضا موسيقيا، كان أعضاؤها يرتدون جلابيب حمراء فضفاضة وطاقيات مزركشة، ظلوا يعزفون على آلاتهم السحرية وهم يتمايلون، بينما كان رئيسهم أو «المعلم» كما يطلقون عليه يشدو:

«لا إله إلا الله..»

المصطفى رسول الله..»

داوي حالي يا الله»

استمتعت بعرض هؤلاء الدراويش الذين ينحدرون من إفريقيا السوداء مثلي تماما، وبالضبط من «غينيا» كما يشاع، وددت لو استطعت أن أضع دراهم ولو قليلة في دق أحدهم، وأنا أهم بالانصراف، تفتق ذهني عن فكرة عبقرية، وهي أن أقترح على رفيقي عبدول تقديم عروض في حلقة شعبية بالساحة، لنروي حكايات وأساطير بلدنا، لعلنا نجني المال كي ننجو من الموت جوعا.

\*\*\*

## -٤-

ما أن اقتربت من الحديقة حتى اندفع نحوي عبدول وهو يجر رجله المصابة بالعرج منذ الطفولة بصعوبة، عانقني بحرارة قبل أن يسألني باللهجة البمبارية، وهي اللهجة السائدة في «مالي» التي تمكننا من التفاهم فيما بيننا مهما اختلفت أصولنا، قائلا:

- أين اختفيت يا أخي؟ ظننتهم ألقوا القبض عليك ليقوموا بترحيلك.

ابتسمت قبل أن أحكي له باختصار عن رحلة تيهي في الأزقة العتيقة، وما أن أنهيت حكايتي حتى قال:

- أقسم إنك ممسوس أو مجنون، وإلا ما كنت لتترك قدميك المتعفتين تقودانك في كل تلك الطرقات المجهولة.

قلت ضاحكا:

- قد أكون مجنونا لكنني لا أفوقك جنونا أيها البمباري الأحمق، ماذا فعلت في غيابي؟ هل عدت إلى عاداتك القبيحة؟

هز كتفيه بلامبالاة وقال:

- وما عساني فاعل؟ أنا عابر سبيل والله أوصى في كتابه الكريم بالتصدق على أمثالي.

أجبتة بغضب:

- أكره التسول يا عبدول، التسول للضعفاء، هناك مئة طريقة لتكسب رزقك بعرق جبينك..

سألني بسخرية:

- إذن لمّ لا تجربها أنت؟

قلت ضجرا:

- أنت أكثر شخص كسول عرفتته في حياتي، ترى كيف ستكسب قوتك إذا ابتسم الحظ في وجهك أخيرا وتمكنت من العبور إلى «الإلدورادو»؟

أجاب بسخريته المعهودة:

- قد أعثر على عجوز إسبانية تُغرم بجمالي وسحر مشيتي، وتقرر أن تتزوجني وترعاني..

ضحكنا طويلا، قبل أن أقترح عليه القيام بعروض في حلقة شعبية ابتداء من اليوم التالي، فكر قليلا وقال بتردد:

- لكنني لا أجيد التحدث بالعربية مثلك يا أخي، ولا أعرف إلا بضع كلمات من اللهجة المغربية، ولهذا لن أتمكن من التواصل جيدا مع الناس، ثم إنني لا أتذكر كل الخرافات والحكايات الشعبية المالية.

طمأنته قائلا:

- سأتكفل أنا بسرد الحكايات بينما ستكون مهمتك أنت هي فقط جمع المال من المتفرجين، اتفقنا؟

لمعت عيناه الجاحظتان وهز رأسه موافقا، فتحت حقيبتي وأخذت منها ما تبقى لي من مال، أغلقتها مجددا ثم حملتها على كتفي، وقلت له:

- هيا يا أخي، يجب أن نقصد حماما شعبيا لننظف أنفسنا جيدا كي يصير مظهرنا لائقا.

حمل حقيبته الصغيرة وتبعني وهو يسير كما لو كان يقفز، لاحظت أن عرجه ازداد وضوحا بسبب سيرنا الطويل منذ بداية رحلتنا، سرنا صامتين إلى أن توقفنا أمام حمام للرجال، دفعت الثمن المطلوب ودخلنا إلى القاعة الكبيرة المكتظة، كان البخار يملأ المكان إلى حد تصير معه الرؤية صعبة، جلبت سطلين كبيرين من الماء وبدأنا في تنظيف جسدنا، فجأة، انتصب أمامنا رجل أبيض ضخم، كان يستر عورته بمئزر، سألنا:

- ألا تريدان أن أفرك ظهريكما؟

نظرت إليه باستغراب، شكرته واعتذرت منه قائلا إننا نعتمد على أنفسنا ولا نترك أحدا يساعدنا في تنظيف أجسادنا، لم يأبه لكلامي، جلس قربي وأخذ كيس استحمامي وقبل أن يشرع في إزالة الخلايا الميتة قال:

- هذه مهمتي، أنا أعمل «كسالا» في هذا المكان.

استسلمت ليديه الخشنتين وأنا مندهش جدا، للمرة الأولى يفرك أحدهم ظهري، في «مالي» اعتدنا الاعتماد على أنفسنا منذ الصغر، واعتدنا كذلك

استخدام كيس استحمام طويل من أجل القيام بعملية تقشير الجلد بأنفسنا،  
قال لي عبدول وهو يحاول أن يكتم ضحكته:

- أتذكر مَثَلنا الساخر: «إذا نظف أحدهم ظهره، إذن يجب أن ينظف بطنك  
كذلك»، يا للعار! سيسخرون منا كثيرا في بلدنا إذا علموا، أتخيل نظرة أمك.

تجاهلته إلى أن انتهى الرجل الضخم من تنظيفي، وتوجه نحوه ليفرك ظهره،  
قلت له:

- الآن سيسخرون منا نحن الاثنين يا أخي الأحمق.

سألني «الكَسَّال»\* وهو منهمك في فرك ظهر «عبدول»:

- من أي بلاد تنحدران؟

أجبتة:

- من «مالي».

سألني مجددا:

- أنتما مسلمان؟

---

\*كَسَّال: مُدَلِّك يعمل بالحمام المغربي ويساعد الرجال في تنظيف أجسادهم  
نظير بقشيش.

- أجل، أنا اسمي «مامادو» أمازيغي مسلم، وهذا صديقي «عبدول» وهو بمباري مسلم.

صاح الرجل:

- سبحان الله! هناك أمازيغ في بلاد السود!

هززت رأسي مؤكدا، وما أن أنهى مهمته وانصرف، حتى انفجرنا ضحكا أنا و«عبدول».

لطالما تساءلت: لماذا ينظر بعض الناس إلى الأفارقة السود كما لو كانوا مجرد نباتات وحشية بلا جذور، تماما كنبته التيلاندسيا.

\*\*\*

-0-

غادرنا الحمام الشعبي يغمرنا انتعاش كبير، في الطريق، توقفنا في مطعم يقدم الحريرة المغربية، ثم عدنا إلى الحديقة، تلك التي تُعد ملجأنا، كان الجو باردا للغاية، وجدنا رفيقينا «إسماعيل» و«حمّاد» نائمين، أدت أنا وعبدول صلاتي المغرب والعشاء، ثم جلسنا لتحدث قليلا بانتظار أن يداعب النوم أجفاننا، تحدثنا في مواضيع شتى، قبل أن يقول عبدول:

- سعيد لأننا أفلتنا من التجنيد الإجباري من طرف الجماعات المسلحة، وكنا محظوظين ولم نمت في الصحراء في أثناء عبورنا إلى هنا، أتمنى أن نكون

محظوظين بما يكفي لنجمع المال ونعبر إلى «الإلدورادو».

أجبتة مازحا:

- قلت لك من قبل إن الجماعات المسلحة التي تعيث فسادا في بلدنا  
يستحيل أن تقوم بتجنيد شخص معطوب مثلك.

أجاب:

- أتدري؟ الجماعات المسلحة لا يهمها عرجي، كل ما يهمها هو أن أجيد  
تصويب أسلحتهم نحو أهدافهم، أو أضغط على زر تفجير أحد أحزمتهم  
الناسفة في الوقت والمكان المحددين، لأن ما يبحثون عنه فعلا هو شباب  
مستعد لتدمير بلده وطمس معالمها التاريخية.

ساد بيننا الصمت، تمددنا وشرعنا نتأمل السماء المُزدانة بالنجوم، إلى أن قال  
عبدول وهو يشير بسبابته نحو السماء:

- انظريا مامادو إلى تلك النجمة الكبيرة اللامعة، إنها نجمتي! لقد تبعثني من  
«تمبكتو» لتنير طريقي، إنها ترافقني منذ صغري.

انتابتنني نوبة هستيرية من الضحك، كنت أحب هذا الأحمق كثيرا وأعتبره  
أخي الذي لم تلده أمي، وكنت أشفق عليه أيضا، لأن فوبيا اختطافه من قبل  
الجماعات الإرهابية وتجنيده في حرب أهلية مجنونة قد أثرت على قواه  
العقلية، وظلت تقض مضجعه حتى بعد لجوئه إلى المغرب.

في تلك الليلة، لم أنم ولو لوهلة قصيرة، ظللت أسترجع ذكريات رحلة هجرتنا القسرية من بلداننا، في البدء، كان يبلغ عددنا نحو ثلاثين حالما وحالمة، كان أغلبنا ينحدر من «مالي» و«السنغال»، توغلنا في تُخوم الصحراء لنعبر الحدود عن طريق البر بعد أن قامت شبكة التهجير السري بجمعنا في العاصمة «باماكو»، حيث دفع كل شخص منا خمسمئة دولار للوسطاء، وهو بالنسبة لإمكانياتنا المادية مبلغ كبير جدا لم يكن بوسع معظمنا تدبيره، بما أن الدخل الفردي اليومي في بلدنا لا يتجاوز دولارين في أفضل الظروف. في حالتي، كان حلمي سيقع في ظلال المستحيل لو لم تساعدني والدتي بمنحي جميع مدخراتها، على أمل أن أنجح في الوصول إلى «أوروبا» لأنتشل نفسي وشقيقتي الثلاث من الفقر الذي ينهشنا..

كان الطريق شاقا، استمر سيرنا لأيام وليال طوال في ظروف لاإنسانية، كان الطقس جد حار وجاف ولم نكن نجد ما نسد به رمقنا غير القليل من التمر والماء، في تلك الصحراء، أصيب ثلاثة رفاق بحمى شديدة ولفظوا أنفاسهم في طريق الحلم الذي اكتشفنا أنه طويل.. أكثر مما ينبغي.

واری مرشدونا جثامين أصدقائنا الثرى في مكان قصي من الصحراء الشاسعة، كدت أنهار وأنا أشهد اغتيال الصحراء القاسية المتوحشة لأحلام هؤلاء الأصدقاء، لكنني تشبثت بحلمي كما يتشبث المقامر الذي اعتاد الخسارة بآخر أوراقه، وتابعت السير رغم نزع قدمي ونزع روعي، لأنني لم أرد أن أدفن في الصحراء كجثة مجهولة الهوية، وكذلك لأنني لم أرغب في أن أخذل أمي وأخلف وعدي لها بأن أعود إليها بعد أن أحقق حلمي وأنا حي أتتفس.

واصلنا السير إلى أن بدأ مرشدونا الأربعة يحثوننا على تسريع وتيرة سيرنا، وأخيرا وصلنا إلى مدينة «تمراست» الجزائرية، هناك سلمونا إلى وسطاء قساة من الطوارق، ساقونا كبهائم شريدة إلى شاحنة كبيرة، كنا في حالة يرثى لها، وكأننا دخلنا في غيبوبة اصطناعية، لم نعرف كيف عبرنا الحدود الجزائرية - المغربية، لنجد أنفسنا عالقين في إحدى الغابات القريبة من مدينة «وجدة»، ونكتشف أن الشبكة قد قامت بخداعنا، وخرقت اتفاقها معنا بإيصالنا إلى إحدى الغابات المتاخمة لمدينة «سبتة»، الثغرة التي قد تمكننا من تحقيق حلمنا، لكن الأوان كان قد فات، لذا أمضينا بضعة أسابيع من الضياع هناك قبل أن نفترق بعدما اختار كل واحد منا الوجهة التي ستمكنه من جمع المال ليجتاز النصف المتبقي من رحلته نحو جزيرة الأحلام.

\*\*\*

## -٦-

مساء اليوم الموالي، قصدنا ساحة «أبي الجنود»، وما أن وقفنا حتى صحت كمجنون:

- صديقاتي، أصدقائي العابرين، هل سبق أن سمعتم مثلنا المالي الذي يقول: «الذهب يُجلب من الجنوب، المال يأتي من بلاد البيض، لكن الروحانيات والحكايات الجميلة لا يمكن العثور عليها إلا في تمبكتو»، لهذا إذا كنتم من محبي القصص المشوقة اقتربوا لتستمعوا بحكايات وأساطير لم تسمعوها من قبل.

اقترب مني بضعة أشخاص، أغمضت عيني وبدأت بسرد أسطورتني:

«يُحكى أنه في زمن بعيد جدا.. كان هناك رجل يدعى مالي، توفيت خطيبته الجميلة غرقا في نهر السنغال، كان مالي يعشق خطيبته حد الجنون، لذا كبله حزن الفقد على ضفة النهر، وذات يوم، ظل يحاول رؤية انعكاس روحها على صفحة النهر، لكنه لم يرها، فأصيب بخيبة شديدة جعلته يذرف دموعا غزيرة، فجأة، سقطت دموعه على صخرة سحرية، واستحال إلى فرس نهر...

بعدها، لمح فتاة ساحرة تستحم في مياه نهر السنغال العظيم، خالجه أحاسيس مبهمة لدى رؤيتها، ظل يراقبها خلسة، إلى أن قرر الاقتراب منها، وعكس ما تصوره، لم تخف منه، حاول أن يتحدث معها، لكنه اكتشف أنها خرساء، إلا أن ذلك لم يمنعها من التواصل بلغة القلب، وكما تعلمون لغة القلب هي اللغة الوحيدة المشتركة بين جميع المخلوقات على وجه البسيطة مهما كانت أشكالها مختلفة...

حمل مالي الفتاة على ظهره ليعبر بها النهر، وبغته، مر مركب صيد بمحاذاتهما، صاح صياد شرير وهو يشير إلى مالي:

- يا للعجب! أنه فرس نهر كبير يحمل فوق ظهره فتاة جذابة، فلنقتله ونأخذ الفتاة لنستمتع بها...

ما أن سمعه مالي حتى قطع النهر بسرعة خيالية، ترك الفتاة الخرساء فوق اليابسة، ثم غاص في النهر من جديد ليهاجم مركب الصيادين بشراسة، خرق المركب ليبتلع النهر ذو التيار الجارف الصيادين الأشرار في طرفة عين، لكنه في أثناء الهجوم أصيب إصابة بالغة ونزف كثيرا، ورغم إصابته المميتة عاد

إلى اليابسة ليطمئن على الفتاة الجميلة، تفاجأ حين ابتسمت وقالت له وهو يحتضر:

- أنا طيف خطيبتك ساديو يا مالي، كنت أعلم أن المياه التي فرقنا ستجمعنا مرة أخرى إلى الأبد...

وهكذا، اختفى مالي رفقة ساديو في أعماق النهر، ذاك النهر العظيم الذي أصبح اليوم مزارا للعشاق الذين يأملون أن يدوم حبهم ووفائهم إلى الأبد، كحب مالي وساديو».

صفق جمهوري الصغير بحرارة، ابتسم لي عبدول قبل أن ينزع قبعته ويشرع في جمع المال من المتفرجين الذين لاحظت أن بعضهم كان متأثرا بالأسطورة للغاية، امتلأت القبعة عن آخرها بالدراهم، شعرت مجددا بالفرح والأمل وهما ينبعثان من رماد حزني ويأسي، لكن كما يقال، هناك أناس هوايتهم المفضلة هي إجهاض فرح الآخرين، صحيح أن حظي العاثر الذي يرافقني منذ الطفولة كثيرا ما جعلني أصطدم بالعديد من قناصي الفرح، إلا أنني لا أنكر أن إساءة ذلك الرجل الذي يستغل سلطته المحدودة ما زالت محفورة في ذاكرتي، رغم مضي وقت طويل عليها.

فقد كنت منتشيا وأنا أحاول أن أحصي النقود التي جنيتها من يومي الأول في الحلقة، عندما خرج رجل قصير من العدم، اقترب منا، أمسكنا من تلايبنا وقال:

- هل تحسبان أن الفوضى تعم بلدنا كما هي الحال عندكم أيها الهمج؟

أجبتة بهدوء:

- لم نفعل شيئاً يا أخي، جئنا لنكسب رزقنا وحسب، ثم من تكون لتتدخل في ما لا يعينك؟

ضحك باستهزاء وأجاب:

- أنا عون سلطنة، ومن بين المهام الموكولة إلى منع اجتياح الجراد الأسود لهذه الساحة، لهذا لا أريد أن أراكما هنا مرة أخرى، وإلا سأصدر أوامري بإعادتكما إلى أدغال قبائل «شاكازولو» التي قدمتما منها.

قبل أن نجيبه، انتزع القبعة من بين يدي «عبدول» وصادر المال الذي جنيناه، ظللنا مشدوهين إلى أن قال:

- رأيتما أيها الزنجان، هذا ما يحدث لمن يُحصّل المال بطريقة غير قانونية، هيا اغربا عن وجهي!

تسمرنا في مكانينا إلى أن تبخر في الزحام، ومعه تبخر حلمنا في كسب قوتنا عن طريق حكي أساطيرنا وحكاياتنا الشعبية.

إلى اليوم، لا أعلم إذا كان هذا الرجل حقا عون سلطنة يستغل صلاحياته المحدودة أم لا، ما أعلمه هو أنني تألمت كثيرا بعد اكتشافني أن أمثاله لا يعتبروننا بشرا من لحم ودم ولا يراعون لنا مشاعر، بل يعتبروننا مجرد حشرات مضرّة يمكنهم أن يسحقوها أنى شاؤوا تحت أحذيتهم بسهولة مطلقة، لأنه لا يحق لها أن تحظى بفرصة للعيش، أو بالأحرى، أن تحاول العيش بسلام، ولو لوقت قصير.

\*\*\*

## -٧-

عدنا إلى الحديقة نجر خيبتنا، كان صديقنا السنغالي «إسماعيل» الذي يعمل ماسح أحذية بانتظارنا لتتقاسم معه وجبته البسيطة المكونة من الخبز والخبز، جلست بعدما خلعت حذائي المهترئ الذي تآكل إلى حد أن برز من خلاله إصبعي الدامي، بعد لحظات التحق بنا «حماد» السيراليوني، كان يحمل بين يديه ما تبقى له من علب السجائر التي يبيعه بالتقسيط، تحلقنا حول الطعام، ثم أدينا الصلاة جماعة، بمجرد انتهائنا من الصلاة، وقف عبدول أمامنا وفاجأني حين بدأ يقص لصديقنا عن مغامرتنا السيئة بساحة «أبي الجنود»، غرق «إسماعيل» و«حماد» في الضحك، استغربت من ضحك «حماد» لأنني عهدته شخصا انطوائيا، حزينا، ومقلا في الكلام، استمر عبدول في السخرية مني، قبل أن يشرع في تقليد طريقة حديثي وهو يقوم بحركات مسرحية، أزعجتني سخريته، ويبدو أنه حينما لاحظ انزعاجي تمادى أكثر، وبدأ يقص أسطوره:

«أصدقائي الحالمين، يقال إن كل شخص يحتاج إلى أسطورة يؤمن بها ليستمر على قيد الأمل، ولهذا سأحكي لكم أسطوري الخاصة:

في غابر الزمان، كانت هناك فتاة جميلة جدا اسمها جوجو، وذات يوم، صادفت أرنبا مكتنزا، فانقضت عليه وذبحته، بعدها، جلبت قدرا فضية وسلقته فيه لتحصل على الشوربة، وكما تعرفون، أكل الأرانب ممنوع في

بلدنا لأنه يجلب الحظ السيئ، ولهذا ما أن تناولته جوجو حتى تجسدت لها ساحرة شريرة، ألقت عليها تعويذة مسختها وجعلت وجهها يبدو كوجه أرنب عجوز، وقبل أن تتلاشى في الهواء، قالت لها وهي تلوح بعصاها السحرية:

- لن يبطل عمل هذه التعويذة وتعودي إلى شكلك الحقيقي إلا إذا عثرت على رجل يحبك كما أنت...

بعد ذلك، التقت جوجو بوخش يدعى غوليم، وقع في غرامها من النظرة الأولى، لكن ما أن اقتربت منه لتقبله لعلها تكسر اللعنة حتى هبت زوبعة قوية وتجسدت لها الساحرة الشريرة من جديد، وقالت بصوت مجلجل:

- ألم تجدي رجلا آخر غير زوجي؟

ثم ألقت عليها تعويذة جديدة حولتها إلى تمثال أرنب مشدوه، لتكون عبرة لكل النساء والرجال الذين يفكرون في الخيانة».

اجتاحت الحديقة عاصفة من الضحك، سألت عبدول باستياء:

- لم أسمع هذه الأسطورة طوال حياتي، هل هي أسطورة بمبارية؟

أجابني ضاحكا:

- إنها أسطورتني الخاصة، لقد ألفتها للتو.

قلت بحنق:

- أنت أحمق فاشل في كل شيء، حتى في تأليف الأساطير، تبا لك! صديقك يتألم وأنت تسخر منه.

قال بنبرة شريرة:

- لا يهم أن تتألم، المهم أن نستمتع!

أراد «إسماعيل» أن يلطف الأجواء بعدما لاحظ اشتعال شرارة غضبي، فتدخل قائلاً:

- رجاء لا تغضب منه أخي مامادو، أنه يحاول فقط أن يرفه عنك، أرجوكم أن تُقلعوا عن هذه المحاولات الفاشلة، لأنه هناك دوما حل بديل.

سألته بلامبالاة:

- أية بدائل؟ نحن عالقون في هذه الحديقة منذ أكثر من شهر ونكاد نموت برداً وجوعاً..

أجاب وعلى ثغره ابتسامة:

- اليوم التقيت بأخ ينحدر من «الكامبيرون» يدعى «جورج»، كان جالسا بأحد مقاهي وسط المدينة، أشار إلى لأقرب منه، خلت للوهلة الأولى أنه يرغب في أن ألمع حذاءه، لكنه هز رأسه رافضا وقال لي:

- «لست سيدك لتمسح حذائي، نحن إخوة»

توقف قليلا وأكمل:

- دعاني إلى تناول كوب من الشاي، ثم سألني عن البلد الذي أنحدر منه، وعن ظروف قدومي إلى هنا، قبل أن يطلب مني أن نلتقي غدا صباحا في السوق المركزي ليدبر لي عملا، شريطة أن آخذ معي أصدقائي الذين هم أنتم، أتمنى أن توافقوا على هذا العرض.

تبادلنا نظرات مترددة، وهزنا رؤوسنا موافقين..

بدا لنا أن «جورج» سيكون مُنقذنا، وقد كان كذلك بالفعل.

نمنا ونحن نتحرق شوقا إلى بزوغ فجر اليوم التالي، ومعه بزوغ أمل جديد.

في تلك الليلة، حلمت بأنني عبرت باب ضريح «سيدي يحيى» بثمبكتو، تفاجأت لأنه لم يكن مدمرا كما تركته الجماعات المسلحة التي هدمت معظم أضرحتنا ومساجدنا، ربما لأن أحلامنا تحرص على تجميل الحقيقة المشوهة، وربما لأننا نأبى رؤية الأماكن التي لطالما ارتبطنا بها ارتباطا عاطفيا إلا على الصورة الجميلة التي رسخت في أعيننا الطفولية.

توجهت رأسا نحو قبة الولي، كان المكان يعبق برائحة خشب الصندل، فجأة، تجلى لي شيخ يرتدي رداء أبيض فضفاضا، اقترب مني وهمس:

- «ما زال طريق حلمك طويلا ومليئا بالعراقيل والصعوبات، لكن يتحتم عليك أن تتحلى بالشجاعة اللازمة لتكمله حتى نهايته.. لأنك

ستتعلم الكثير من رحلة سعيك وراء حلمك»

\*\*\*

أفقنا في الصباح الباكر، حملنا حقائبنا على أكتافنا واستقلنا الحافلة لنلتقي بجورج، كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة عندما توقفنا قرب الباب الرئيسي للسوق، في مدخله، لمحت امرأة إفريقية جذابة للغاية، أثارني لونها الأبنوسي الجميل، كانت جالسة تمضغ العلكة أمام طاولتها الخشبية الصغيرة التي تعرض عليها مراهم وأبخرة وبعض الحلي، لاحظت نظراتي فأرسلت إلى ابتسامة كشفت عن أسنانها البراقة، رددت عليها بابتسامة ودخلت إلى السوق صحبة أصدقائي.

وجدنا «جورج» بانتظارنا، كان يبدو كما تخيلته بالضبط، طويل القامة، قوي البنية، كثيف الشعر، يرتدي معطفا جلديا قصيرا ويضع قرطا لامعا في أذنه، كانت ياقة معطفه المفتوحة تبرز عقدا أسود تتخلله بعض الأحجار الصغيرة الملونة، تقدم نحونا، صافحنا وعانق «إسماعيل» بحرارة قائلا:

- الرجل الأسود لا يخلف وعده أبدا!

تفرس في وجوهنا، ونظر طويلا إلى أجسادنا وأقدامنا، بدا لنا كما لو كان يفحصنا، استفسرنا عن أسمائنا وبلداننا، قبل أن يشير إلينا لنتبعه، تبعناه في صمت، إلى أن توقف أمام دكان لبيع الخضر وطلب من عبدول أن يتقدم، ثم قال للعجوز صاحب الدكان باللهجة المغربية التي لاحظت إتقانه لها:

- عمي «صالح»، وعدتك بأن أجلب لك مساعدا بأسرع وقت ممكن، وها أنا ذا أفي بوعدتي اليوم، أقدم لك «عبدول»

ثَبَّتَ العم «صالح» عينيه طويلا على عبدول وقال لجورج بحدة:

- ماذا سأفعل بهذا الكائن؟ واضح أنه لا يصلح لشيء على الإطلاق، ثم إنه يبدو ككلب بثلاث قوائم، لا أريده، رؤيته سئنفّر الزبائن.

ابتلع عبدول الإهانة، بينما أجابه جورج بحزم:

- دعه يساعدك، إنه على ضمانتي، وإلا...

قبل أن ينهي جورج جملته، وافق العم صالح على توظيف عبدول بأجر شهري قدره ثلاثمئة وخمسين درهما مغربيا، تركنا عبدول رفقة مشغله الجديد وأكملنا جولتنا الاستكشافية مع جورج، الذي دعانا إلى الجلوس لتناول الفطور بمقهى شعبي في السوق، واتفق معنا على أن نبدأ العمل كحمّالين، خفنا أن يتم طردنا من طرف الحمّالين الآخرين، لكنه طمأننا بقوله إننا سنكون تحت حمايته، أعطى توجيهاته لحمّاد وإسماعيل قبل أن يودعانا ليقفا في باب السوق بانتظار أن يطلب منهما بعض مرتاديه مساعدتهم في حمل مشترياتهم، بقيت جالسا معه أنتظر توجيهاته إليّ، أخذ رشفة من كوب شايه المُننعغ، تأملني قليلا وخاطبني قائلاً:

- الشبه بينك وبين أخي الصغير «بُول» مخيف فعلا.

قلت:

- أتمنى أن أرى شبيهي.

رد بحسرة:

- للأسف لم يعد بوسع أي منا رؤيته في هذه الحياة.

قام من مكانه، لحقت به، أوقفني أمام متجر يبيع أحذية مستعملة، كانت تبدو في حالة جيدة، تفاجأت بقوله:

- اختر حذاء.

جريت حذاء رياضيا مريحا، دفع ثمنه، شكرته على كرمه، عانقني، كنت أهم بوضع حذائي الممزق داخل حقيبتي لكنه منعني من ذلك، قائلا إنه لم تعد لدي حاجة به، أخذه مني ووضعه داخل كيس بلاستيك ودعاني إلى التخلص منه، افترقنا في المدخل بعدما شدد على ضرورة انتظارنا له قرب الباب بعد موعد إغلاق السوق في الساعة الثانية مساء.

كان الخوف من المجهول ينهش صدري، لم أدر ما الذي حرصني على الوقوف بمحاذاة بائعة الحلبي الجميلة، ربما لأشعر قليلا بالأمان.. كانت تحصي بتركيز دراهم قليلة حين دنوت منها، صافحتها وقدمت لها نفسي:

- السلام عليكم، أنا مامادو من مالي.. وأنت؟

- أنا «أماديا»، قدمت من النيجر قبل عام من الآن.

كنت سأقول لها إن اسمها جميل، مثلها تماما.. في اللحظة التي وقفت فيها أمامي امرأة شابة ترتدي جلبابا ملونا وطلبت مني أن أحمل قففتها، كدت أسقط وأنا أحاول حملها من فرط ثقلها، قبل أن أتبع المرأة قلت لأماديا:

- أتمنى أن يتجدد لقاؤنا قريبا.

في طريقي بصحبة المرأة، توقفت مرارا لألتقط أنفاسي، وصلنا بعد عناء إلى باب منزلها، أعطتني أجري، شكرتها وعدت أدراجي إلى السوق.

انقضى يومي الأول في عملي الجديد بسرعة، كنت قد ساعدت سبعة أشخاص وشارف مخزون طاقتي على الانتهاء، المشكلة هي أن العديد من الناس قد ترسخت لديهم تلك الصورة النمطية عن الأفارقة السود الأشداء الذين بوسعهم حمل الجبال فوق أكتافهم، لهذا كان لزاما عليّ أن أتظاهر بالقوة لأحيا، رغم أن رحلتي نحو المغرب قد استنزفت قواي بالكامل.

التحق بي حماد وإسماعيل، كانا خائري القوى مثلي، أسندنا ظهورنا المتعبة إلى سور السوق ووقفنا ننتظر جورج وعبدول، قدما معا، دعانا جورج إلى تناول الغداء والمبيت في بيته، سرنا خلفه بخطى حثيثة حتى وصلنا إلى حي «الأطلس»، ولجنا أحد المباني القديمة، كانت الشقة التي يقصدها جورج تقع في الطابق الأرضي، أدار المفتاح في الباب ودخلنا، كانت شقته تتكون من مطبخ وحمام، غرفة للمعيشة وغرفتين ضيقتين للنوم، أعجبنى ذوقه في الأثاث، ولفتت انتباهي التماثيل الصغيرة للعدراء والمسيح عليه السلام، والصليب الخشب الذي يتوسط حائط غرفة المعيشة، على أحد الرفوف، وُضعت شموع بيضاء وعلبة مستطيلة ملونة بنفس ألوان علم الكاميرون، طلب منا أن نغير ملابسنا وأن نرتاح قليلا ريثما يقوم بتحضير الأكل، توجهنا نحو غرفة النوم التي أشار إليها، هناك، فوجئت بكم هائل من المنحوتات الخشب المدهشة المتروكة بإهمال على الأرضية، بدلت ملابسني بسرعة واقتدرحت على أصدقائي أن نقصد المطبخ لنساعد جورج، جهزنا المائدة معا وتحلقنا حولها، كان قد أعد أجنحة دجاج مقلية شهية أرفقها بطبق من

البطاطس المحشوة باللحم المفروم، تليذنا بالأكل، بمجرد انتهائنا قال  
مبتسما:

- أدوا صلواتكم يا إخوتي دون أن تشعرُوا بأدنى حرج، ففي النهاية، نحن  
جميعاً نصلي لإله واحد، ولو اختلفت دياناتنا وطريقة أدائنا للصلوات.

\*\*\*

## -٩-

أعطانا جورج هاتفه لنطمئن على أسرنا، اتصل حماد بزوجته واتصل  
إسماعيل بوالده المسن، بينما اطمأن عبدول على والدته وأشقائه، انتظرت  
دوري طويلاً قبل أن أتمكن من تركيب رقم هاتف أمي، فرحت عندما زفت لي  
خبر وضع شقيقتي الكبرى «غالية» مولودها الأول، الذي أطلقت عليه اسم  
«يحيى» تيمناً بوليننا الصالح، أغلقت الخط وشكرت جورج على إيوائه لنا  
ولطفه اللامتناهي معنا، نام أصدقاؤنا بسرعة من فرط التعب، وبقيت وحدي  
مستيقظاً لأونس جورج، أطفأ الأنوار وأوقد شمعة، واقشعر بدني بعدما قال:

- طلبت من الرب أن يبعث لي إشارة صغيرة كي لا أنهي حياتي الآن، اليوم،  
علمت أن ظهورك في حياتي هو تلك الإشارة الغيبية.

لم أعرف كيف أرد عليه، لكنه لم يكن بحاجة إلى ردي، بقدر ما كان يحتاج إلى  
أن أصغي إليه، لذا، تركته يضيف:

- سأحكي لك قصتي التي ينوء قلبي العاجز عن النسيان بحملها، قبل أكثر من عامين، كنت رجلا سعيدا، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما، ويعيش رفقة والديه وأشقائه الأربعة وزوجته الجميلة الحبلى، في بيت دافئ يأحدي قرى الشمال الشرقي الكامبيروني، كان جورج يملك دكانا صغيرا يبيع فيه منحوتاته الخشب، كانت زوجته توشك على وضع طفلها الأول الذي اتفقا على أن يسمياه «ليونيل»، ولهذا كان يتأخر في العمل لعله يبيع أكبر عدد ممكن من منحوتاته، ليكون مستعدا لاستقبال الطفل الذي لطالما حلم به، كما يجب.. لم يكن يهمه أن يجهد نفسه بقدر ما كان يهمه أن يوفر كل حاجيات أسرته.. في ذلك اليوم المشؤوم لم يدرك أن بعض الأيام قد يبدو سيرها طبيعيا إلا أنها قادرة على تغيير مجرى حياة الإنسان ووشم ذاكرته إلى الأبد.. لذا، أنهى عمله في وقت متأخر، أغلق دكانه الذي كان يبعد قليلا عن قريته وسلك طريق العودة إلى بيته وهو يحمل مهد طفله القادم الذي انتهى من صنعه بعد أسابيع طويلة من الكد.. وهو يشعر بسعادة عارمة، كانت تلك آخر مرة شوهد فيها جورج الحي.. السعيد.

عاد جورج إلى قريته فوجدها منقلبة رأسا على عقب، سأل أحد العابرين عما يحدث، وأحس بالأرض تميد تحت قدميه حين أخبره بأن الجماعة المتطرفة «بوكو حرام» قد شنت هجوما في ذلك المساء على بيوت السكان المسيحيين، وأفرغت رصاصات بنادقها الغادرة في صدورهم، هرع جورج ليتفقد أسرته وهاله ما رأى.. كان وحوش «بوكو حرام» قد قتلوا كل أفراد أسرته دون استثناء، دنا كمجنون من زوجته ليتأكد من أن طفله ما زالت أمامه فرصة للحياة، وتعرض لصدمة قوية لدى اكتشافه أن القتلة قد صوبوا

رصاصهم على بطن زوجته المنتفخ، سقط المهد من بين يديه وتحطم، مثلما تحطمت أحلامه وتشرذمت روحه.

هل لك أن تتصور أنهم أعدموا أسرة جورج وأسرا أخرى كثيرة في تلك الليلة الدموية، بجُرم ديانة وُلدوا ووجدوا أسرهم تعتنقها؟ كانت تلك المذبحة الشنيعة من بين أبشع المذابح في تاريخ الكامبيرون المعاصر، ذبحوا عائلات بأكملها، لكنني أفلتت، لسبب تافه، سبب تافه جدا.. لأن قطار الموت فاتني.. بضع دقائق من التأخر قد تجعل الموت يؤجل قطف روحك إلى أجل غير مُسمى.. لذا، أعتبر بقائي قيد التنفس مجرد حادثة حياة. دفنت أفراد أسرتي، ومعهم دفنت جورج القديم، السعيد، واستحلت إلى واحد من الموتى الأحياء، فتقنيا، أنا لست حيا، بل أظاهر بالعيش في انتظار المرور القادم لقطار الموت السريع.

أشعل سيجارة، نفث دخانها وأكمل حديثه وهو يُجهش بالبكاء:

- في بعض الأحيان يرفضنا الردى، يُرجئ أخذنا، ويترك الحياة تهبنا فرصة ثانية، فقط لتتفنن في تعذيبنا وتمعن في إيذائنا، أتدري؟ أحيانا أفكر في الانتحار، في قطع أوردتي كلها عساني أنجح في الالتحاق بوالديّ، بأشقائي «باتريك» و«كريستيان» و«ماري»، و«بول» الذي تشبهه حد التماهي، من أجل الالتقاء في الأبدية بحبيبتي ذات العشرين ربيعا «سينثيا» وبصغيري «ليونيل» الذي لم يحظ بفرصة واحدة ليفتح عينيه ويتأمل جمال العالم، وليضحك ويلعب ككل الأطفال الأحياء المحظوظين، كثيرا ما أحلم بأنني أركض خلفه في برارٍ فسيحة، أعتقد أن هذه البراري هي الجنة، ولهذا أقاوم

أفكاري الانتحارية التي لا تفارقني، كي لا يكون مصيري هو السقوط في  
هاوية الجحيم السفلي، لعلني ألتقي به لأتعرّف عليه أخيراً في الحياة الأبدية.

صمت قليلاً، أخرج شيئاً من جيبه لم أتبين ماهيته، وتابع بشروء:

- لم يتبق لي من طفلي إلا جوربه الصوف هذا، الذي حاكته له والدته قبل  
أسبوع على رحيلهما معاً، لماذا لم تسمح له الحياة بفرصة لارتدائه؟ ماذا لو  
كان الآن يشعر بالبرد؟

انهار باكياً، عانقته لأواسيه وقلت:

- آسف يا أخي لمصائبك، أنا متأكد من شيء واحد هو أن الموتى لا يشعرون  
بشيء من مشاعرنا الدنيوية لأنهم في عالم أفضل بكثير من عالمنا القاسي.

كفكف عبراته، أطفأ الشمعة وقال:

- سامحني يا صغيري «بول»، لم أكن أرغب في أن أنقل لك عدوى حزني،  
تصبح على حلم.

غفونا، وقبيل الفجر، استفاق وهو يصرخ ويبيكي، كان يتصبب عرقاً، قفزت  
من سريري لأطمئن عليه، قال لي بصوت متهدج:

- لا تجزع يا أخي، إنهم لا يتركونني بسلام منذ وقت بعيد.

سألته:

- من؟

سرت قشعريرة قوية في كامل جسدي عندما أجايني:

- أرواح سكان قرיתי الذين قضاوا في المجزرة.. تلك الأرواح الهائمة المعذبة كروحي، استأنف نومك ودعني أتفاوض معها.

امتثلت لرغبته، عدت إلى فراشي لأحاول النوم مجددا، أحسست بالسلام الروحي يغمرني وأنا أسمعه يتلو صلاته:

- «ربي أنت ملجئي وملاذي في وقت الضيق، اهديني يا رب طريقا أبديا والطف بي لأن لطفك عظيم، ما أعظمك يا رفيق وكافل وضامن سلامة مسيرة مُختاريك مدى الحياة، كن كفيلا لي في ما يحدث في غربة هذا العالم، إلى أن أدرك الأرض التي وعدت بها محبيك المخلصين...

يا رب قوتك تكمل ضعفي، ونعمتك تكفيني وتغنيني، لبتك تعزيني بالمجد العتيد لتشجعني به وسط آلام هذا الزمان الحاضر، ليس مجدا آتيا أنتظره الآن، بل عرفني يا رب أن هذا المجد مدخر لي وينتظرني...

فلتكن مشيئتك يا ربي لا مشيئتي، وساعدني على قبول مشيئتك يا إلهي، وأن أسدّ بها وأترك كل أمر يتعارض مع خلاصي، لأنني أعلم أن طلباتي التي رُفضت، قد رُفضت بفضل عنايتك الإلهية، لأنك ترى ما هو صالح لي، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت..

لتكن يا رب إرادتك، فإذا كان لائقا أن أتألم وأنت سيد الخلاص، فحوّل العقوبة خلاصا».

غفا كطفل مُجهد، ما أن أنهى صلاته.

\*\*\*

## -١٠-

في ذلك الصباح البارد من أواخر شهر ديسمبر، كانت السماء حبلى بالغيوم الرمادية، فاجأنا الودق الغزير بمجرد وصولنا إلى السوق، وتلته حبات ضخمة من البرد الذي تلقفته الأرض العطشى بلهفة.

اختبأنا داخل السوق، التحقت بنا أماديا وهي تحمل طاولتها الخشبية بمشقة، لاحظت أن المطر قد بلل خصلاتها المتمردة مما جعلها تبدو كحورية بحر مُغوية، توقف المطر مؤقتا فتفرقنا طلبا لرزقنا.

لم يرتد السوق العديد من الناس في ذلك اليوم بسبب سوء أحوال الطقس، بحثت عن جورج، وجدته يساعد بائع أسماك في تنظيف أحشائها، توجهت نحوه وسألته باستغراب:

- ماذا تفعل يا أخي؟

قال بعصبية دون أن يرفع عينيه لينظر إلي:

- أحمل صناديق الخضر والفواكه، أساعد في تنظيف الأسماك، أو من الحماية لبعض التجار، وأحرس دكاكينهم في أثناء أدائهم الصلاة بالمسجد المجاور للسوق، أفعل كل شيء وأي شيء.. ليس لأكسب رزقي وأتمكن من العيش بكرامة فحسب، بل لأنشغل قليلا وأنسى.

تركته ومضيت، كانت أماديا تقف قرب المدخل، دنوت منها كما تدنو الفراشة من النور غافلة عن إمكانية الاحتراق، التفتت نحوي وقالت:

- إنه يوم سيئ، لم أبع شيئاً على الإطلاق، في الأيام المماثلة، يتحتم عليك أن تجيد قراءة إشارات السماء كي لا تغادر فراشك وبيتك وتصاب بالخيبة.

ربث على كتفها وقلت:

- أعتقد أننا اختبرنا أياماً أسوأ بكثير من هذا اليوم، ولهذا سننجو مهما قست الظروف، ومهما عاندتنا الدنيا.

أجابتنني بابتسامتها الساحرة، كانت توشك على حمل طاولتها لتعود إلى مسكنها عندما عرضت أن أساعدها، فكرت ملياً قبل أن توافق على عرضي، قالت لي إن الغرفة التي تسكن فيها تقع في سطح إحدى العمارات القريبة من السوق، سرت إلى جانبها وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي، قبل أن نصل، سألتها إن كان لديها مرهم بوسعه شفاء جراح قدمي التي أبت أن تلتئم، أطلقت ضحكتها الرنانة وقالت:

- لدي أدوية سحرية بإمكانها أن تشفي كل شيء، بعض زبائني الأوفياء يلقبوني بالساحرة أماديا، لكن إياك أن تفشي سري وإلا سأؤذيك بسحري!

قلت وأنا أتأمل عينيها البنيتين الواسعتين:

- لا يهمني أن تلقي عليّ ساحرة جميلة مثلك لعنة أبدية، أو حتى أن تعذبني بتحويللي إلى دمية «فودو»!

لم تجبني، وأخيرا توقفنا أمام العمارة التي تقطن بها، صعدا الأدرج التي بدا لي أنه لا نهاية لها، وضعت طاولتها قرب بابها، عرّضت عليّ الدخول إلى غرفتها الغربية التي كانت تشبه مختبرا سحريا، جلست فوق أريكة متهالكة، بينما توجهت هي نحو ركن المطبخ وشرعت تُنقب في أوعية زجاجية ممتلئة عن آخرها بأعشاب لم يسبق أن رأيتها طيلة حياتي، غادرت المطبخ بعد لحظات وهي تحمل وعاء مملوءا بمنقوع خلطة سرية من الأعشاب، نَزَعَتْ حذائي وجوربيّ وأمرتني بأن أغطس قدمي داخل الوعاء، أذعنت لها، دعكتها بيديها الحانيتين بطريقة حولت ألمي إلى خدر لذيذ سرى في أذق شراييني.

انتهت ومسحت قدمي بمنشفة نظيفة، وأخذت مرهما وضعته على جراحي، جلست أمامي وسألتني إن كنت أشعر بتحسن طفيف، هزرت رأسي مؤكدا ووجهت لها سؤالي:

- هل أنت ساحرة حقيقية؟

صمتت لبُرهة وأجابت:

- هناك من يعتبرونني ساحرة، لكنني أعتبر نفسي بائعة للأمل.

أدهشتني كلماتها، فطلبت تفسيراً:

- ماذا تقصدين ببائعة للأمل؟

- أقصد أنني أبيع في الخفاء منشطات جنسية للرجال المحبطين، وأحضر طلاسمة محبة للنساء اليائسات اللاتي يرغبن في إشعال جذوة حب أزواجهن

لهن من جديد، جميع هؤلاء المصابين باعتلال اليأس عادوا لرؤيتي وأكدوا لي أن وصفاتي وطلاسمي قد نجحت بشكل ساحر، لكنني لا أعتقد أنني كنت السبب وراء نجاحها، بقدر ما أنجحها استعدادهم النفسي لزراعة بذور الأمل في أرواحهم التي كادت تذبل من جراء استحواذ اليأس عليها، أعترف لك بأنني امرأة أمية، لا أجيد القراءة ولا الكتابة، فكيف لي أن أكتب تعويذات ناجحة؟ في نظري، لتنجح التعويذة يلزم الإنسان أن يؤمن بها، ويقتنع في أعماقه القصية بأن الوصفة السحرية ستشفيه، وحينها فقط سيشفى جسده وقلبه المعتلان، لأن روحه ستمارس عليهما طقوس الإيحاء، وهذه هي خلاصة كل ما تعلمته في مدرسة الحياة.

راقتني نظريتها، وفكرت في أنها محقة، تذكرت كلمات أمي وهي تحاول بث القوة في نفسي بعد وفاة والدي:

- «اليأس هو البوابة التي يعبر منها طيف الموت».

قامت لتعد شايتها السحري حسب قولها، لم أستطع منع عيني من التجول طويلا في تضاريس جسدها المكتنز، عادت، صبت لي كوبا من الشاي وسألتنني:

- كم عمرك؟

- اثنان وعشرون عاما.

- أنا أفوقك سنا وخبرة، وفي رصيدي عدة خيبات.

- لكل منا خيباته الخاصة.

- أجل.. ربما تلك الخيبات المتراكمة على مر السنين هي التي جعلتنا نهرب من بلداننا بذريعة الهجرة، لأصدقك القول، لم يسبق أن فكرت ولو لثانية واحدة في مغادرة موطني، لكن أحياناً، لا تبقى أمامك من وسيلة مساعدة عدا اختيار الحل المتطرف، حتى لو تسبب في إيذائك لنفسك ولأحبائك.. قبل نحو ثلاث سنوات، كنت أعيش بسعادة مع زوجي المزارع البسيط وابنتي الصغيرة «شاد» التي ستطفئ شمعتها الخامسة في مارس، في ذلك المساء الذي كان يصادف نهاية السنة، لاحظت أن السماء كانت تزمجر بغضب، لكنني لم أهتم لإشاراتها وأكملت تحضير وجبة العيد، كنت أعد لزوجي أطباقه المفضلة عندما سمعت طرقة على الباب، فتحت فارتمت جارتي في أحضاني وهي تنتحب، أخبرتني حاستي السادسة النسائية بأن زوجي قد أصابه مكروه ما، وبالفعل، سمعتها تقول وسط دموعها إن أولئك القتلة الذين يطلقون على أنفسهم لقب جهاديين قد قاموا بإحراق ما يزيد عن ثلاثين رجلاً مسلماً من بينهم ابنها وزوجي، أحرقوهم أحياء بتهمة رفض التجنيد الإجباري، كانت تلك هي هديتهم الدموية لبلدهم بمناسبة رأس السنة.

قلت:

- آسف عزيزتي.

نهضت من مكانها لتجلب شيئاً، عادت وهي مبتسمة، وضعت أمامي صورة طفلتها التي هي نسخة منها، وقالت:

- هذه صغيرتي «شاد»، هي كل ما تبقى لي، وهي الآن بعهدة والدتي، ومن أجلهما، سأفعل المستحيل لأعبر إلى إسبانيا.

ترقرقت الدموع في عينيها، اقتربت منها ومسحت دموعها، ضممتها إلى صدري، أحسست بأنفاسها اللاهثة، وقبل أن أغرق في سوادها الجميل الذي أضفت عليه حبات عرقها لمعانا يحبس الأنفاس، قلت لها:

- آن الأوان لتزعي ثوب الحداد وتبعثي من شرنقة اليأس يا بائعة الأمل.

\*\*\*

## - ١١ -

لم أكن أخطط للاحتفال بأول ليلة رأس سنة أقضيها بعيدا عن أهلي وبلدي الحبيب، إلا أنني اليوم، عندما أسترجع ذكرى تلك الليلة السحرية، التي فتحت لنا مزلاج باب الأمل في عام أجمل، تتحقق فيه أحلام كدنا نياس منها من فرط تأجيل الدنيا إهداءها لنا، أفكر في أنها كانت من بين أروع احتفالات الأعياد في حياتي.

لكنني لا أستطيع منع نفسي من التساؤل في أوج لحظات يأس: هل كنت سأحتفل بانتهاء سنة خضنا فيها عدة تجارب وتحديات صعبة في معترك الحياة، ولو زارتني حينها رؤيا استباقية أو تحذيرية، تنبئي بأن عربة هدايا السنة الجديدة ستتوقف عندنا لتخبئ لنا تحت شجرة الميلاد هدايا مُمَوِّهة،

مفخخة، ستنفجر في وجوهنا لحظة فتحنا لها، وتتطاير شظاياها في أرواحنا  
المثقلة بالأحزان لتنسف مشاعرنا؟

لا أملك إجابة حاسمة لسؤالي المؤرق، واثق من شيء واحد فقط، هو وأن  
الحياة قد علمتني منذ نعومة أظفاري أن الاحتفالات والأعياد ليست إلا حيلة  
مبتكرة اخترعها الإنسان ليقتنص فرصة عابرة للفرح، رفقة أحياء لا نعلم  
بالضبط متى سيحين الموعد المحدد لافتراقهم عنا في محطة الحياة، لهذا  
أقول إنها كانت ليلة تستحق الاحتفال.

احتفلنا لأننا رغبتنا في أن ننسخ لوقت قصير عن واقعنا البائس، لنشارك في  
مسرحية الحياة الطبيعية، ولو ككومبارس، حضر كل واحد منا أكلة مميزة من  
بلده، قطعنا قالب الحلوى الذي ابتاعه جورج، ورقصنا بفرح طفولي على أنغام  
كل من أسطورة موسيقى «الريغي» الراحل «بوب مارلي»، والمطرب  
الكاميروني الراحل «لايبرودي مبانغا»، وملكة إيقاع «الديداي» المالي الذي  
يتراهن شبابنا خلال احتفالاتنا ومناسباتنا على من سيجيد الرقص عليه،  
والسيدة «ناهاوا دومبيا»، وأخيرا، ملكة المطربات السنغاليات «فاتومباولو»،  
الملقبة بـ«فارمارا».

دقت الساعة الثانية عشرة، تبادلنا التهاني، راقني قول جورج:

- أتمنى أن يكون العام الجديد ألفين وخمسة عشر هو عام تحقيق أحلامكم  
التي مكثت لوقت طويل في قائمة أمانيكُم المعتقد.

على حين غرة، أفسد حمّاد بهجتنا المصطنعة بقوله لنا:

- اعذروني يا إخوتي، لم تُرد أن نفسد ليلتكم، لذا أجلنا أخباركم بأمر مهم  
يخصني أنا وإسماعيل.

استفسرناه بنظراتنا، صمت قليلا وقال:

- في الحقيقة، لقد تعبنا من حمل الأثقال في السوق من أجل جني دراهم  
معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولهذا قررنا الذهاب للعمل في ضيعة  
فلاحية بنواحي مدينة «مكناس»، لعلنا نجني مالا يكفيننا كي نتوجه إلى  
مدينة «سبتة» لترجمة حلمنا على أرض الواقع.

أردف إسماعيل:

- أتمنى أن تتفهمونا وتسامحونا، لم نعد قادرين على التحمل أكثر.. شكرا لك  
أخي جورج على كل شيء، شكرا لكما عزيزي مامادو وعبدول، لن ننساكما  
أبدا.

سألته:

- كيف عثرتما على هذا العمل؟ ولماذا كل هذا التكتم؟

أجابني:

- التقيت أنا وحماد بصاحب الضيعة في السوق، لاحظ قوتنا وطاقتنا ولهذا  
عرض علينا توظيفنا، لم نخبركم فورًا لأننا لم نكن قد توصلنا بعد إلى قرار  
نهائي.

لم يعلق جورج على كلامهما، لكن استيائه كان واضحاً، همس عبدول في أذني:

- «الكل يغترب من طنجرة المعتوه ويمضي»، كما يقول مَثَلنا.

نظرت إليه شزراً، سكت، بعد لحظات، قصد حماد وإسماعيل غرفة نومهما، جلست أنا وعبدول مع جورج، حاولت أن أخرجته من صمته بقولي:

- لا تحزن يا جورج، أعدك بأنني سأظل معك إلى الآخر مهما حدث.

قال عبدول:

- وأنا كذلك.. يستحيل أن أتخلى عنك يا أخي الكبير، أعدك بأنه لن يفرقنا شيء إلى أن نحقق حلمنا المشترك، ونعبر إلى الإلدورادو.

ارتسمت على وجهه ابتسامة مضيئة، وقال:

- ممتن لهذا الحلم الذي جمعني بكما يا أخويّ، أنتما عائلتي، والمنارة التي تمنعني من الغرق في بحر الأسي.

استأذنا، غاب للحظات وعاد وهو ويحمل علبتين، أعطاني علبة حمراء وأعطى لعبدول علبة صفراء، كانت العلبتان مغلقتين بشريط أخضر، قال لنا:

- أتمنى أن تروقكما هديتاكما، لقد حرصت على تغليف العلبتين بألوان علم بلدكما مالي.

فتحنا علبتينا بسرعة كطفلين فضوليين، شهقت حين وجدت في علبتي  
مركبا خشبا ذا أشرعة صغيرة، كان منحوتا بإتقان، وكان جليا أن جورج هو  
من قام بصنعه، لاحظت أنه عمّده باسم: «الحلم الإفريقي»، عانقته وشكرته  
طويلا على هديته المميزة، أجبني:

- لا شكر بين الإخوة صغيري «بول»، أتمنى أن تعبر سالما إلى الضفة الأخرى  
ليتجسد حلمك أيها الرجل الإفريقي الأصيل.

تفاجأت أكثر حينما أخرج عبدول من علبته منحوتة ذات شكل بيضاوي  
نُقشت عليها كلمة «الله»، نظر إلى جورج بدهشة، علق هذا الأخير:

- أنا على يقين بأن الله العظيم لن يتخلى عنكما أبدا، وسيحقق حلمكما إذا لم  
تياسا من رحمته وتهجرا طريقه.

كانت هديتنا لجورج مختلفة، كنا قد قررنا أن نهديه عقدا ملونا جديدا ابتعته  
من أماديا، فرح جورج بالعقد، وضعه حول عنقه فوق عقده الأسود القديم،  
تسرب الحزن إلى قلبي لدى سماعه يقول:

- اعذراني لأنه ليس بوسعي نزع عقدي القديم كما تقتضي العادة، لأنه آخر ما  
تبقى لي من زوجتي «سينثيا».

\*\*\*

اشرأبت أعناق كل التجار ومرتادي السوق الفضوليين الذين تجمعوا بسرعة صاروخية للاستمتاع بمشاهدة الشجار الحاد الذي نشب بين عبدول ومشغله العم صالح، في صبيحة ذلك اليوم الكئيب من أواخر شهر يناير، كان الزبّد يتناثر من فم العم صالح الخالي من الأسنان، كان يُحكّم قبضته على مكيال كبير ويهدد عبدول بتحطيم جمجمته الفارغة ويسبهه قائلاً:

- الله يلعن والديك يا «عزّي \* بَمبارا»!

فَارَ دم عبدول، وأجابه:

- تبا لك أيها العنصري النتن! لا تشتم والدي وإلا سأشرب من دمك وأسحق عظامك!

أتى جورج ليتدخل بسرعة ويحاول فض هذا الاشتباك الذي لم نعرف سببه، صاح العم صالح في الجمع:

- أرايتم؟ قلت لكم من قبل إنه من آكلي لحوم البشر!

بحركة بهلوانية سريعة، أمسك عبدول مكيالاً صغيراً وضرب به العم صالح على وجهه، أصابه في خده، تدفق الدم من جرح صالح الذي سقط مغشياً عليه من فرط الوجد، وسط تجمهر الناس وصياحهم الغاضب المطالب برأس الزنجي العنيف عبدول، نجح جورج في سحبه خارج الدكان، ليختفيا في لمح البصر بين الباعة المتجولين، ركضت لألحق بهما، وجدتهما في الزقاق الحجري الجانبي المحاذي للسوق، سألت عبدول وأنا

ألتهث:

---

\*عزّي: بكسر حرف الزاي، كلمة عنصرية تعني باللهجة المغربية: زنجي.

- ماذا دهاك يا أخي؟ هل فقدت صوابك بالكامل؟ منذ متى أصبحت عنيفا؟

أجابني وهو ويرتعش:

- لقد طفح الكيل، تعبت من تجرع إهانات ذلك العجوز البشع، لقد شتم أصولي ووالدي فقط لأنه يدعي أنني بطيء كسلحفاة برمائية، كل يوم، أعمل بأقصى سرعة لأسلم الطلبات للزبائن، ورغم ذلك لا يفوت فرصة للسخرية مني وإهانتني بسبب شكلي.

تدخل جورج:

- لا عليك يا أخي الأحمق، لكي تحيا، عليك أن تتعود على سماع مثل هذه الإهانات من حين إلى آخر.

رد عليه وهو ويبيكي:

- كيف لي أن أتعود على شتم أصولي؟ أسمعته يقول لي: «عزّي بمبارا»؟

أجاب:

- كلمة «عزّي» باللهجة المغربية تعني: زنجي، وهي ليست بشتيمة بقدر ما هي كلمة وصفية تطلق على كل شخص ذي بشرة داكنة، حتى المغاربة السود،

وبالنسبة إلى «بَمبارا»، فهي كلمة عنصرية متوارثة منذ قرون، منذ استقدم أحد سلاطين الدولة السعدية عبدا من قبيلة البمبارا ليعملوا في البناء.

صاح بتحد:

- لست عبدا! أنا رجل حر.

قال جورج:

- يتحتم علينا أن نذهب الآن قبل أن يستدعوا الشرطة.

\*\*\*

## - ١٣ -

عقب حادث السوق، اقترح علينا جورج الذهاب إلى مدينة طنجة لتدنو من الحلم، لم يكن لدينا ما نخسره بعد فقدنا عملنا في السوق، قام جورج ببيع أثاث بيته، كما باع جزءا من منحوتاته الخشب -التي أسرَّ لي بأنه صنعها كلها بالمغرب، واحتفظ بأغلاها لديه- لمالك «بازار» بثمن بخس، وبذلك تمكن من تأمين مبلغ كاف لانتقالنا إلى طنجة «جوهرة الشمال»، لنبدأ من الصفر، كأجدادنا الرُّحل.

قُبيل اليوم الموعود، قصدت غرفة أماديا لأودعها كما يليق بملكة جنوبية مثلها، كنت قد ابتعت أخيرا هاتفا جوالا، أعطيتها رقمي لنظل على تواصل، وأعطتني تميمة حمراء مماثلة لتلك التي لا تفارق معصمها، قالت لي إنها

ستحميني من الشرور التي قد أصادفها في الطريق، شرط ألا أنزعها من يدي  
أبدا.. قَبَلتْها وغادرت.

في الليلة السابقة لرحلتنا الجديدة، صرح لنا عبدول برغبته في زيارة ضريح  
«سيدي أحمد التيجاني» الذي له مريدون وأتباع كثر لطريقته في مالي،  
امثلنا لرغبته، توغلنا في أزقة المدينة العتيقة المتشعبة مع جورج الذي أصر  
على مرافقتنا، وصلنا إلى الضريح بعد مسير طويل جدا.. أخبرنا جورج بأنه  
سينتظرنا قرب الباب، وقبل أن ندير ظهرينا لنلج هذا الضريح العريق، قال:  
- اطلبوا من وليكما الصالح أن يُعينني على الصبر والتحمل..

أدينا الصلاة، وبعدها، شرع شيوخ من المتصوفة في قراءة الأوراد، رددت  
معهم في خشوع:

- «اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، واغفر لي  
بقدرتك فلا أهلك وأنت رجائي، رب كم من نعمة أنعمت على بها قلّ لك عندها  
شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك عندها صبري، فيا من قل عند نعمته  
شكري فلم يحرمني، ويا من قل عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من رأي  
على المعاصي فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدا ويا ذا النعماء  
التي لا تحصى عددا، أسألك أن تصلي على نبيك محمد وعلى آله وصحبه  
أجمعين...

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. سبحان ربك رب  
العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

في الصباح الباكر، حملنا متاعنا القليل وقصدنا محطة القطار، كنت حزينا  
كوني سأغادر فاس دون أن تتسنى لي فرصة زيارة أقدم جامعة في العالم  
«جامعة القرويين»، وأقدم «مارستان» في العالم كذلك، ولكن رغم حزني  
مئيت نفسي بالعودة إلى فاس -التوأم الروحي لتمبتكو- التي بصمت قلبي  
وذاكرتي ذات يوم قريب، بعد أن أحقق حلمي الذي أحمله بين يدي بعناية  
كمزهرية زاهية الألوان.

امتطينا قطار الحلم الذي انساب فوق سكة الأمان، ليعانق أرض طنجة  
الخصبة، ملتقى الأحلام.

\*\*\*

# على ضفاف الحلم

فَلَرَبَّتَمَا فاض المَحْيَا.. بِبُحور الموج من اللُّجَج

(ابن النحوي)

-١-

بعد طول حلم، توقف قطارنا بمحطة طنجة ذات الآفاق اللامحدودة، طنجة البوهيمية التي وقع في غرامها العديد من العظماء الذين وطئوا ترابها، هذه المدينة الساحرة، الزاخرة بأساطير وحكايات شعبية ترجع إلى حقبة الإمبراطور الروماني «هرقليس»، «طنجيس» الضاربة جذورها في عمق التاريخ، والتي قال عنها الدبلوماسي والرحالة الأندلسي «الحسن الوزان» الملقب بـ«ليون الإفريقي» -والذي يعود إليه الفضل كذلك في التعريف بالسحر الأسطوري لتمبكتو، وإفريقيا القديمة عموماً- في مخطوطته النادرة «كوسموغرافيا إفريقيا»: «إنها مدينة عظيمة أزلية، ونموذج للمدن التاريخية التي يلفها الكثير من السحر والغموض».

اجتازنا باب محطة قطار طنجة، كان الطقس دافئاً نسبياً، وكان النسيم البحري منعشاً، فوجئت حينما وجدنا بانتظارنا شاباً عشرينياً وسيماً، عرفت فيما بعد أنه ينحدر من الكامبيرون، تقدم نحونا، صافحنا مُرحباً، قبل أن يعانق جورج بحرارة ويقول باسمنا:

- سعيد لأننا التقينا أخيرا بعد مضي عدة أشهر على افتراقنا.. اشتقت إليك كثيرا أخي العزيز.

أجابه جورج:

- وأنا بدوري اشتقت إليك أخي «ميكائيل»، أتمنى أن تكون كل أمورك على أحسن ما يرام.

ساعد ميكائيل جورج على حمل الكرتونة التي تحوي منحوتاته الخشبية، أوقف سيارة أجرة كبيرة، في البداية، لم يوافق سائقها على إقلالنا، أعتقد أنه خشي أن نؤذيه، وافق بعدما وعده جورج بأن يمنحه ضعف أجرته، صعدنا على متن السيارة، وسمعت ميكائيل يقول للسائق:

- ستأخذنا إلى حي «فال فلوري».

كانت حركة السير في ذروتها، ظللنا نتأمل المدينة السحرية من خلف زجاج السيارة، مررنا بمحاذاة الشاطئ، صاح عبدول كالأطفال:

- أخيرا تحققت أمنيتي في رؤية شاطئ حقيقي، إنه أجمل بكثير مما يبدو عليه في التلفاز.

شعرت بسعادة عارمة، كنا للمرة الأولى نمر قرب شاطئ حقيقي، في مالي، لا يوجد شواطئ، كون بلدنا بلدا داخليا غير ساحلي، تحده من الشمال كل من موريتانيا والجزائر، بوركينافاسو وساحل العاج من الجنوب، النيجر من الشرق، السنغال من الغرب، وغينيا الاستوائية من الشمال الشرقي، لذا، لم

يسبق أن رأينا البحر مباشرة، بالنسبة لنا، كان البحر مكانا يكتنفه الغموض، لا نسمع عنه إلا في أساطيرنا المحلية.

وأخيرا وصلنا إلى حي «فال فلوري» المكتظ بالسكان، دفع جورج للسائق جاف الطبع، ثم سرنا مع ميكائيل بلا توقف إلى أن عبرنا باب مبنى جديد، صعدنا الدرج الطويل، توقف ميكائيل أمام باب شقة تقع في الطابق الأخير، فتح الباب ودلفنا وراءه، كانت الشقة التي اختارها لنا صغيرة ودافئة، مكونة من غرفة للمعيشة وغرفة للنوم، إضافة إلى حمام ومطبخ تتسلل إليه أشعة الشمس من خلال نافذة ذات إطلالة ساحرة، سلم ميكائيل المفتاح لجورج وقال:

- لقد ابتعت الأسرة الثلاثة والملاءات والأريكتين، إضافة إلى الموقد الصغير والأواني التي أوصيتني باشترائها من سوق «كاساباراطا» المخصصة لبيع الملابس والأثاث المستعمل، إذا كان ينقصكم شيء ما فما عليك إلا إخباري لأجلبه لكم على الفور.

شكره جورج، ثم سأله بكم ابتاع كل تلك الأشياء ليؤدي له المبلغ الذي دفعه، رفض ميكائيل قائلا:

- لن أقبل أن تعيد لي درهما واحدا من المبلغ البسيط الذي دفعته، مهما فعلت فلن أفيك حقه أبدا.. لن أنسى احتضانك لنا وإيواءك إيانا أنا والإخوة المهاجرين في بيتك بفاس، بيتك الذي كان في نظرنا محطة الأحلام قبل أن نكمل طريقنا نحو طنجة، البوابة المفضية إلى أوروبا.

ابتسم له جورج وأجاب:

- لا داعي لشكري عزيزي، نحن إخوة.

قبل أن ينصرف ميكائيل، قال:

- نسيت أن أقول لك إنني قد تحدثت مع مشغلي المقاول الفرنسي «سيباستيان» بخصوص قوة تحملك وإخلاصك، ووافق على تشغيلك في موقع البناء الذي أعمل به، سأمر لآخذك معي بعد غد على الساعة السادسة صباحا.

سألت جورج:

- لم لا تحاول عرض منحوتاتك الخشب الرائعة في الشارع، لكي تكسب قوتك من فئتك، أليس ذلك أفضل من أن يضيع جهدك البدني في أشغال البناء؟

رد بحسرة:

- كانت تلك أول فكرة تبادرت إلى ذهني في بداية استقراري بالمغرب، إلا أنني اكتشفت فيما بعد أن الأمر صعب للغاية، المشكلة هي أن معظم الناس لا يقدرّون فني، ولا يرغبون في اشتراء منحوتات يجدون ثمنها باهظا، دون أن يفكروا في المجهود اليدوي الذي يتطلبه صنعها، لكن إذا كانت لا تزال لدي أمنية في جُعبة الأمان التي لم تتحقق، فإنني أتمنى أن يرى الناس فني ويُقدروه ذات يوم، ولو بعد رحيلي إلى العالم الآخر، مثلما قدروا فن الرسام الكبير «فان غوغ»، بعد مضي سنين على موته.

قلت:

- ستتحقق أمنيتك وأنت على قيد الحياة، لأن الله أنعم عليك بموهبة فذة.

قال بصوت مُؤنَّسٍ بالأسى:

- أتدري؟ رغبت مرارا في التخلي عن موهبتي لأنها كانت سبب مأساتي، لكنها لم ترضَ أن تتخلى عني.

\*\*\*

## - ٢ -

في اليوم الثالث لوصولنا إلى محطتنا الجديدة، شعرنا أنا وعبدول بالملل، لأن جورج كان منشغلا بعمله الجديد، ولن يعود إلى البيت إلا بعد حلول الساعة السادسة مساءً، لذا اقترح عليّ عبدول أن نخرج معا لنقوم بجولة استكشافية لهذه المدينة المُغرية، وافقت على اقتراحه وبدأنا مغامرتنا في الشوارع الفسيحة لطنجة.

امتطينا حافلة عمومية أقلتنا إلى الشاطئ، نزعنا حذاءينا وسرنا على الرمال الذهبية، ودون سابق إنذار، انطلق عبدول الأحمق كسهم مُقوَّس نحو البحر، غطس قدميه في أمواجه الصغيرة دون أن يأبه لتحذيراتي له من برودة المياه، قبل أن يشرع في رشي بها بطريقة صبيانية، أحسست بانتعاش لا مثيل له لدى ملامسة الماء الأجاج لَسامي.

كان عبدول يتصرف كطفل عثر لتوه على مغارة سحرية، لم يرغب في مغادرة الشاطئ إلا بعدما وعدته بأننا سنعود إلى ضفته عما قريب.

تجولنا على الشاطئ الذي وجدناه مذهلا بنخلاته السامقة، مقاهيه وفنادقه الفخمة، ومحلاته التجارية المختلفة، ولجنا «بازارا»، بهرتنا مهارة الصّناع التقليديين المغاربة، لفت انتباهي منفضة سجائر ملونة مصنوعة من الخزف، ابتعتها كهدية لجورج، ثم أكملنا الجولة.

استنشقتنا روائح الأطعمة الشهية المنبعثة من المطاعم الشعبية، المنتشرة على الشاطئ، أحسسنا بالجوع، اخترنا الجلوس على تراس أقربها، طلبنا طاجين السمك بالخضر والتوابل الخاصة على الطريقة الطنجية الشمالية، كان من ألد الأطباق التي تناولتها في حياتي.

استأنفنا سيرنا، وفجأة، لفت انتباهي مطعم عُلق عليه لافتة كُتب عليها باللغتين العربية والفرنسية وبحروف التيفيناغ الأمازيغية «مطعم أنوال»، لاحظت ورقة ألصقت على واجهته الزجاجية، قرأت: «مطلوب نادل للعمل»، دون تفكير، عبرت بابه رفقة عبدول ووجدت نفسي داخل مطعم مغربي حميمي، راقنتي طاولاته ومقاعدته المرتبة، التي تمزج بين النمط المغربي التقليدي والنمط الأوروبي، وأعجبنتني الصور التي تزين جدرانه، بعضها كان يجسد أشهر معالم طنجة، كمغارة هرقل، سور «المعكازين»، والسوق الداخلي، والبعض الآخر كان عبارة عن صور رجال لم أتعرف عليهم، رجحت أنهم من المشاهير المغاربة، هز عبدول يدي وهو ويشير إلى أطباق خزفية مستديرة، معلقة على جدار صغير، وعليها صور مناظر طبيعية خلابة لكل من مدينتي طنجة والحسيمة.

خرج شاب ثلاثيني من المطبخ، كان طويل القامة، أبيض البشرة، شعره أسود فاحم وعيناه بنيتان لوزيتان، رحب بنا بلهجته المغربية المشوبة بلكنة

شرقية، ودعانا إلى الجلوس، اعتذرت منه قائلاً أن سبب دخولي إلى المطعم هو رغبتى في الظفر بالوظيفة المُعلن عنها، طلب منى أن أنتظر قليلاً، واختفى خلف المقصف.

انتبعت إلى ببغاء بديع الألوان، موضوع داخل قفص ذهبي فوق رف مجاور للمقصف، قلت لعبدول:

- يا له من ببغاء جميل!

صدمنى هذا المخلوق العجيب حين صاح:

- قرد.. قرد!

أت امرأة ممتلئة جميلة في منتصف عقدها الخامس، بيضاء كمنحوتة إغريقية، شعرها الأسود البراق مرفوع على شكل ذيل حصان، وعيناها بلون العشب، كانت ترتدي جلباباً أزرق، قالت لنا مبتسمة:

- مرحباً، أنا «ثلايْتْمَاس» مالكة المطعم، وهذه ببغائى المشاغبة، الأنتى الشريرة «كوكو»، أتمنى أن تقبلاً اعتذارى عما بدر منها، إنها معتادة على هذه المشاكسات.

ابتسمت لها، تقدمت نحوها وصافحتها، ثم قلت:

- لا عليك سيدتى، وأنا كذلك معتاد على مثل هذه التصرفات.

عرفتها بنفسى وقدمت لها عبدول، حكيت لها عن وضعى كمهاجر سري بإيجاز، قبلت توظيفى مبدئياً مقابل أجر شهري قدره ألف وخمسمئة درهم

مغربي دون احتساب البقشيش، شكرتها على ثقتها، شرحت لي ظروف العمل بمطعمها وشددت على حضوري في اليوم التالي في تمام الساعة العاشرة صباحا، قبل أن أودعها، قلت لها:

- أعجبنى اسم المطعم كثيرا، رغم أنني لم أفهم معناه.

قالت مبتسمة:

- اخترت اسم أنوال تيمنا به لأنه اسم واحدة من أشهر المعارك التي قادها أسد الريف، الأمير الأمازيغي «عبد الكريم الخطابي» سنة ١٩٢١، وفيها حقق نصرا ساحقا على جيوش الاحتلال الإسباني.

أشارت بفخر إلى صورة لرجل مهيب يرتدي الملابس التقليدية ويضع على رأسه عمامة، وقالت:

- ها هو بطلنا المقاوم الذي نفتخر به أيّما افتخار نحن أهل الريف.

\*\*\*

- ٣ -

عدنا إلى شقتنا الصغيرة، وجدنا جورج وميكائيل يطبخان طاجين الدجاج بالجزر والزيتون الأخضر، غيرنا ملابسنا، أدينا الصلاة، والتحقنا بهما لنتناول عشاءنا الشهي، قدمت المنفضة الخزفية لجورج، سُرَّ بها كثيرا، مسح على

رأسي وشكرني، أخبرته بأنني عثرت على عمل كنادل بمطعم مطل على البحر، فرح من أجلي، قال عبدول بحزن:

- المشكلة هي أنه لا أحد يقبل توظيف رجل أعرج مثلي، ولهذا أعتقد أنني سألازم البيت لفترة طويلة.

ابتسم ميكائيل وقال له:

- لا تقلق يا أخي، اترك هذه المهمة لي.

بعد هنيهة، وجه جورج سؤاله إلى ميكائيل:

- هل من أخبار جديدة عن شقيقتك المفقودة «أنابيل»؟

تنهد ميكائيل ورد عليه:

- للأسف لا أثر لها.. وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتها.

سألته عن سبب اختفاء شقيقته، حكى لي أنه قبل أربع سنوات كانت أنابيل ذات الثلاثة عشر ربيعا، في طريق عودتها من المدرسة رفقة صديقاتها، عندما اعترض سبيلهن رجال مسلحون من عصابات «بوكو حرام»، وقاموا بختفهن، ومنذ ذلك الحين، لم يصل لأهاليهن أي خبر عنهن، ولم ينشر التنظيم المتطرف أي بيان أو فيديو بخصوصهن، ليبقى مصيرهن لغزا محيرا، وتُفتح باب الفرضيات المرعبة، التي ترجح أن هؤلاء المجرمين قد اغتصبوهن جماعيا قبل قتلهن ودفنهن في مقبرة جماعية مجهولة.

عبرت له عن أسفي الشديد، ابتسم بمرارة ثم سألني:

- وأنتما؟ ألن ترويا لي قصتيكما؟

قلت له بإيجاز إنني كنت أتابع دراستي بالثانوية عندما قتل والدي إثر انفجار سيارة مفخخة قرب ثكنة عسكرية قريبة من حيننا، في ذلك المساء، كان عائدا من الفندق الذي يعمل به كطباخ وهو يحمل بين يديه كما عودنا قليلا من الأكلات التي طبخها وقدمها للسياح، انفجرت السيارة وتوفي والدي وعابر آخر من السكان، إضافة إلى جنديين.. منذ ذلك الحين، تأزمت أوضاعنا المادية، واضطرت إلى التوقف عن الدراسة قبل نيل شهادة البكالوريا. قصت الفندق لأرجو مديره الفرنسي كي يسمح لي بأن أحل محل والدي في العمل، إلا أنه طردني بقسوة بعدما قال لي إنه لا يحتاج إلى شخص عديم الخبرة مثلي.

حل دور عبدول ليروي قصته أو بالأحرى مأساته، قال لميكائيل إنه أصيب بمرض غريب خلال طفولته أورثه عرجا مزمنا، رغم محاولات والديه المستميتة، اليائسة لعلاجه سواء عن طريق الطب، أو عن طريق الأعشاب وزيارة الأولياء الصالحين، ما جعله يضطر إلى مغادرة صفوف المدرسة مبكرا من جراء سخرية الأطفال منه، وذات يوم، اغتيل والده الجندي البسيط في هجوم مسلح على قاعدته.

اغرورقت عينا عبدول بالدموع في أثناء روايته لقصته، ربت جورج على كتفه وقال:

- يبدو أن قدرنا هو الغرق في محيط المآسي، كأننا لم ندفع بعد ثمننا كافيا عقب قرون من المعاناة والعبودية، ليستمر التنكيل بنا من طرف هذه

الجماعات الإرهابية، التي تتخذ من الدين ذريعة لتقتل ما تبقى فينا من حياة وأمل.

\*\*\*

## -٤-

بحلول يوم الغد، قصدت مطعم أنوال لأصل في الموعد الذي حددته لي السيدة الطيبة تلايتماس، في طريقي، لاحظت أن مدينة طنجة التي لا تنام، لا تُفتح متاجرها إلا في ساعة متأخرة من الصباح.

دخلت، استقبلتني السيدة تلايتماس بحفاوة، ودعتني إلى مشاركتها وجبة فطورها المكونة من عجة البيض باللحم المقدد على الطريقة المغربية، مرفقا بالشاي المنعنع، أفرطنا على أنغام الموسيقى الريفية التي نالت استحساني إيقاعاتها كونها تمزج ما بين الإيقاعين الأمازيغي والغربي، كانت الببغاء سليطة اللسان تمضغ قطعاً صغيرة من ثمرة جوز الهند، علقت السيدة تلايتماس:

- إنها تعشق جوز الهند، ولهذا أطلقت عليها اسم كوكو، إذا أردت كسب ودها وتجنب مضايقاتها فما عليك إلا أن تجلب لها بين الفينة والأخرى قطعاً منه، إنها متوافرة بكثرة هنا، ويبيعه باعة متجولون بثمن زهيد.

شكرتها على لطفها ونصيحتها، أتى الشاب المشرقي الوسيم الذي استقبلني أنا وعبدول في اليوم السابق، وقف أمامنا وسألها بلكنته المميزة:

- «أمي تلايئَمَاس»، هل يمكنني أن أصطحب هذا الشاب معي الآن لأسلمه زي العمل، وأوضح له بعض الأمور؟

أجابته:

- طبعاً «نورسي»، أعانكما الله.

أعجبتني مناداته لها بأمي، كما أحببت مناداتها له بنورسي.

قبل أن أذهب معه، التفتت نحوي وقالت:

- اسمك مامادو هو اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بلُغتكم أليس كذلك؟

قلت:

- أجل سيدتي، في بلدنا يطلقون اسم مامادو على الابن البكر تيمنا بنبي الله العظيم.

قالت:

- من الآن فصاعدا سأناديك بمحمد، كي لا يجد الزبائن صعوبة في نطق اسمك، ويمكنك مناداتي بـ «أمي» كنورس، اعتبرني والدتك، جميعكم أبنائي.

فكرت في أنه منذ وصولي إلى أرض المغرب، تمت إعادة تسميتي مرتين، لأحظى باسمين مختلفين تماما هما: محمد وبُول.

دلفت مع نورس إلى غرفة ضيقة وراء المطبخ، مخصصة لتغيير الملابس، أعطاني زي العمل، أسرعت بارتدائه، بعدها، أخذني معه في جولة لأتعرف على عمّال المطبخ، قدم لي العم «عبد الله» الطباخ الذي يقترب من عقده السادس بخطى حثيثة، ذكرتني رؤيته بوالدي، تعرفت كذلك على مساعده الشاب «سالم»، والخالة «اعويشة» التي تهتم بتنظيف الأواني والمطعم.

سطع نور يعمي الأبصار بعد دخول فتاة ساحرة الجمال إلى المطعم، صاحت الببغاء عاشقة جوز الهند بابتهاج:

- شقراء.. شقراء جميلة!

التحقت بنا الشقراء الفاتنة، سلمت علينا، غرقت في زرقة بحر عينيها، انتشلي نورس بقوله:

- أقدم لك زميلتنا «علياء».

مددت لها يدي المرتعشة، صافحتني بحرارة واختفت داخل غرفة تغيير الملابس.

ذكرتني علياء -الفتاة الشمالية ذات الجمال الأخاذ- بمعشوقتي الأولى في مالي «سارة» المنحدرة من عرب أزواد، ببياضها العاجي وشعرها الانسيابي، ذاك الحب الممنوع في أعراف أولئك العرب المتشددين، سارة حبي الأول، ذلك الحب المُستعر الذي أنستني إياه بائعة مخدر المتعة الحسية «فانطا»، المرأة السونينكية، عشيقتي الأولى الجامحة، بعد تجربتي مع فانطا

استنتجت أمرا هاما، هو أنه وحده الحب الجسدي قادر على أن يُنسي الرجل  
الحب الروحي، وعذاباته.

لن أنسى كذلك علاقتي القصيرة، المميزة واللامشروطة مع الساحرة أماديا أو  
بائعة الأمل كما كان يحلو لها أن تلقب نفسها.

بالرجوع إلى يومي الأول بالمطعم، أذكر أنه لم يرتده العديد من الزبائن،  
سألت «أمي تلايتماس» عن السبب، فطمأنتني بأن فصلي الربيع والصيف  
على الأبواب وفيهما سأرى مدى اكتظاظ المطعم بالسياح الداخليين  
والأجانب.

كان سير العمل عاديا، إلى أن جاء ذلك الزبون الفظ، بمجرد اقترابي منه لآخذ  
طلبته، قال لي بحدة:

- استعمرتم البلد أيها الغربان المشؤومة! وصار عددكم يفوق عددنا بكثير..  
وضيقتم الخناق أكثر على شبابنا المعطل، لا أريد أن تخدمني، فلثناد على  
النادلة علياء!

تجرعت الإهانة، عدت إلى الداخل، وناديت علياء التي توجهت نحو الزبون  
العنصري، فطنت إلى أنه زبون دائم للمطعم، في استراحة الغداء، جلست  
رفقة نورس، ابن مدينة حلب العظيمة، لاحظ استيائي فاستفسرني عما  
حدث، حكيت له عن إساءة الزبون الفظ لي، سكت قليلا وقال:

- لا تكثر عزيزي لمثل هذه التصرفات الشاذة، أنا لجأت إلى المغرب سنة  
٢٠١٢، بعدما حمي أوار الحرب ببلدي سوريا، وأؤكد لك أن جل المغاربة

يتقبلوننا ويحسنون معاملتنا، أمثال هذا الحقير الذي صادفته اليوم قلة، وهم  
رضعوا من ثدي العنصرية منذ طفولتهم، هل لك أن تتصور أنهم عنصريون  
حتى فيما بينهم؟ كم مرة سمعت أحدهم يشتم أصول أبناء بلده المنحدرين  
من مناطق مختلفة، وينعتهم بنعوت بشعة.. لا تأبه لمثل هؤلاء، إنهم مجرد  
مرضى يُنفسون عن عقدهم الدفينة.

\*\*\*

-0-

أغلق المطعم بابه في منتصف الليل، تكفلت «أمي تلايْتْماس» بتوصيل علياء  
والخالة «اعويشة» إلى بيتيهما كما اعتادت، ودعناهن، غادر العم عبد الله  
صحبة مساعده سالم، وبقيت مع نورس الذي اقترح على القيام بجولة  
قصيرة في طنجة الليلية الملهمة، النابضة بالحياة.

امتطينا سيارة أجرة، وتوقفنا بعد دقائق بمنطقة «مالاباطا» الراقية، سحبني  
نورس من يدي إلى داخل أحد المقاهي، جلسنا، طلب كوبين من عصير  
الأفوكادو بالفواكه الجافة، تأملني طويلا، قبل أن يقول:

- عيناك تشيان بأن في جُعبتك العديد من الحكايات.

عدتُ إلى الوراء بفرع، خلت أنه مُستبصر أو شيء من هذا القبيل، سألته:

- كيف عرفت؟

ضحك وأجاب:

- وظيفتي هي قراءة الوجوه والتعابير، والتنقيب عن الحكايات المتوارية خلف العيون، أحيانا، يُمكنني إحساسي المرهف المتطور من سبر أغوار بعض الأشخاص الذين أصادفهم، أنا كاتب وشاعر، أو بالأحرى كنت كذلك قبل اندلاع الحرب في سوريا الحبيبة، تلك الحرب التي أفقدتني كل شيء، لكنها للأسف لم تُفقدني مقياس المشاعر وحاستي السادسة الأدبية. لطالما اعتبرت أن وظيفة الكاتب هي مراقبة الحياة والأحياء، والتقاط أدق التفاصيل من أجل الكتابة عنها، في الواقع، أحيانا أغبط أبطال الورقيين لأنهم يَحْيُونَ أكثر مني، كوني أسقط أحلامي ورغباتي واستيهاماتي عليهم في القصص القصيرة التي أنسجها حولهم، بينما أظل أنا جالسا أكتب وسط أطلال آمالي، لأراقب حياتهم من بعيد.. تلك الحياة التي لم أعشها لأن مؤرّعة أوراق الحظ في كازينو الدنيا ظالمة.. باختصار الكتابة هي لعنتي الأبدية.

طلبت منه أن يحكي لي قصته، رد على قائلا:

- سأحكي لك قصتي، رغم أنني في كل مرة أرويهما تتنابني نفس الأحاسيس المؤلمة، شريطة أن تحكي لي قصتك، وتحديثي أكثر عن عظمة إمبراطورية «الصونغاي»، أقدم إمبراطورية في تاريخ غرب إفريقيا والتي أمست اليوم بلدك مالي.

وافقت، فبدأ بسرد قصته الموجهة:

- كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي في شام الياسمين، كنت أتابع دراستي العليا تخصص لغة عربية بجامعة حلب، وأنشر كتاباتي في الصحف السورية

وأشارك في أمسيات شعرية وملتقيات ثقافية، كان حلمي الكبير في ذلك الوقت هو إصدار ديوان شعري. كنا نعيش في رخاء بهذه المدينة التاريخية، كونها كانت قبل الحرب عاصمة الاقتصاد السوري، وكل يوم، كنت أضع لبنة جديدة في قصر أحلامي، ذاك القصر الذي قصفه منجنيق الواقع القاسي.

اندلعت الحرب، فقدت شقيقي «مجد» الطالب الحالم والعايز الماهر على آلة العود، والذي كان يصغرني بأربع سنوات، بعدما اعتقل بتهمة انتمائه إلى المعارضة، شقيقي الغالي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في غياهب المعتقل من شدة التعذيب.

بعد رحيله، رغبت في أن أنضم إلى صفوف المقاومة، لكنني صدقا لم أعرف من سأحارب، كل ما أعرفه أننا جميعا إخوة ولو اختلفت دياناتنا ومذاهبنا وطوائفنا، ولدنا وعشنا على نفس الأرض وتنفسنا الهواء ذاته، لكننا فجأة صرنا نقتل فيما بيننا. ورغم حيرتي، كنت على وشك الانضمام إلى المقاومة، لكن لم تتركني والدتي لأنني كنت كل ما تبقى لها ولشقيقي التوأمتين الصغيرتين «شذى» و«غنى»، بعد انفصال والدي عنها قبل سنين، وبعد موت «مجدنا».

تركنا كل شيء، ولجأنا إلى المغرب بعدما احترق الياسمين، ومعه احترقت أحلامي.

كثيرا ما شبهت الحياة بحلبة مصارعة شاسعة، تضربك بلا توقف، دون أن تترك لك فرصة لملمة جراحك لتنهض من سقطتك وتستأنف المباراة بشموخ وتحدي، والمفارقة الكبرى هي أنها تؤجل تسديد الضربة القاضية لك طويلا.

في الواقع، تمنيت مرارا أن ترأف بي الحياة المتوحشة وتُسد لي لقماتها  
الرحيمة، ولكن الآن، الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانبطاح في حلبة  
الحياة القاتلة - بعد أسرتي - هو حبي المُتقد لجارتي وعشيقتي الراقصة  
العجرية الرومانية الحسنة «أناستازيا»، التي تعمل راقصة شرقية في  
الكازينو القريب من هذا المقهى.

سرح بنظره قليلا، ثم طلب مني أن أحكي له عني، عن مالي، وعن مآسيها..  
بعدها أنهيت حكلي، قال بشرود:

- لا وطن محددًا للمأساة!

\*\*\*

## -٦-

حل يوم الجمعة عيد المؤمنين، اكتشفت منذ قدومي إلى المغرب أن المغاربة  
يتبعون طقسا مقدسا في هذا العيد، إذ مباشرة بعد أدائهم الصلاة في  
المساجد، يحرصون على تناول طبق اليوم المكون من الكسكس.

كان العم عبد الله ومساعدته سالم من همكين في تحضير هذه الوجبة الغنية  
بطريقتيها: الكسكس باللحم والخضر والكسكس بالدجاج والزبيب، أخبرت  
أمي تلايئتماس بأننا أيضا نحضر الكسكس بالخضر في مالي إلا أننا نضيف  
إليه القنبيط والبادنجان والزيتون الأخضر، استغربت طريقة إعدادنا له قبل  
أن يفتر ثغرها عن ابتسامته وتفاجئني بقولها:

- أعط و صفتكم للعم عبد الله ليحضر لنا الكسكس على الطريقة المالية  
الأسبوع المقبل، أرغب حقا في تذوق أكالاتكم.

كان المطعم فارغا قبيل أذان صلاة الظهر، لذا سمحت لنا أنا ونورس والعم  
عبد الله بالذهاب لأداء الصلاة في «المسجد الأعظم»، الذي يُطلق عليه معظم  
سكان طنجة اسم: الجامع الكبير، هذه المعلمة الدينية والتاريخية، والمنارة  
العلمية التي كانت قبلة الطلبة الراغبين في النهل من بحر علوم الدين، القريبة  
من مرفأ طنجة القديم ومن السوق الداخلي، والتي تمتاز بتصميمها الهندسي  
الفريد ونقوشها الأندلسية العريقة، في الطريق، قال لي نورس:

- قرأتُ قول العلامة الكبير «عبد الله كُنون» عن هذا المسجد ذي المعمار  
الأصيل، والذي كان مقرًا للحركة الوطنية ضد الاستعمار: «إن موقعه الموجود  
بالقرب من شاطئ البحر، يغري الجميع بالقدوم إليه، حيث تظهر الأندلس  
قريبة من نافذته، ويتجلى من خلالها مصباح المنار الموجود في مدينة  
طريفة، فيهدي بنوره السفن المارة بقربه، وهي متعة لا توجد في أي مسجد  
من مساجد الأرض».

وأضاف وهو ويشير بيده إلى الساحل المتوسطي:

- ها هو ذا مضيق جبل طارق الذي يلوح في الأفق، هل تعلم أن المسافة  
الفاصلة بين أقرب نقطتين على ضفتي المتوسطي لا تتجاوز أربعة عشر  
كيلومترا؟ هذه المسافة القصيرة هي مسافة حلمك الذي تخال أنه تفصلك  
عن ضفافه عُقد بحرية لا نهاية لها.

تأملت هذه المفارقة العجيبة، وأحسست بأن حَفْل حلمي القريب البعيد على كتفي قد بدأ ينهكني، وأنا ما زلت تائها بين ضفافه التي يبدو لي يوما بعد يوم أنها تبتعد أكثر فأكثر.

دخلنا إلى المسجد العابق بالتاريخ، وأسندنا ظهورنا إلى سواريه الضخمة، بانتظار بدء الصلاة.

استمعنا إلى خطبة الإمام الطاعن في السن حول التعايش السلمي والتكاتف الأخوي، تلك الخطبة التي اختتمها بالآيات الكريمة:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون.  
يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».

بعد الصلاة، عدنا إلى المطعم الذي بدأ الزبائن بالتوافد عليه، من بين مرتاديه الذين ظلوا في ذاكرتي تلك السيدة التي قدمت رفقة شريك حياتها وطفليهما، بعد جلبي لطلبهم، سألتني عن البلد الذي أنحدر منه، وحينما أخبرتها بأني قدمت من دولة مالي، ابتسمت وقالت:

- ثمة عدة روابط تاريخية وروحية بين مالي والمغرب، قبل قرون، استقرت «زينب» حفيدة «يوسف بن تاشفين» ثاني ملوك دولة المرابطين الذي وحد

المغرب وضم الأندلس تحت مُلكه بتمبكتو، والتي وقعت في غرامها، وأنشأت إحدى أكبر المكتبات في غرب إفريقيا بهذه المدينة ذات الثلاثمئة وثلاثة وثلاثين وليا.

رددت عليها:

- في مدينتي تمبكتو، الكل يردد أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأحفاده من بين عظماء الإسلام، الذين يرجع إليهم الفضل في نشر هذا الدين السمح والعلم والصوفية في مالي.

ودعتها وأنا أفكر في أن نورس أصاب بقوله إن أشباه الزبون الكريه، قلة.

\*\*\*

## -٧-

في استراحة الغداء، اجتمعنا في المطبخ لنتناول الكسكس، كانت الأم تلايئماس تأكل في صمت وشروود، لاحظت حزنا عتيقا في عينيها، قلت في نفسي إن نورس قد نقل لي عدوى البحث عن قصص الحيوانات في أعين الناس.

خفت الحركة بالمطعم بعدما أسدل المساء سُجُوفه المزخرفة بالنجوم والأجرام السماوية، مررت قرب أمي تلايئماس، ابتسمت لي، فوجهت لها سؤالي:

- هل لي أن أعرف معنى اسمك الرنان؟

أجابت:

- تلايْثْماس بالأمازيغية يعني: ينبوع الماء الصافي.

قلت مبتسما:

- أنت كذلك بالفعل.

أطل نورس من خلف المقصف وقال وهو ويحرك يديه كما ولو كان يلقي  
قصيدة:

- الغدير تَلايْثْماس، قلبها من ماس.

رددت البيغاء الحمقاء بطريقة تشبه تلك التي تحدث بها نورس:

- ماس.. ماس.

ضحكنا، أشارت إلى لأجلس بقربها، امتثلت لرغبتها وتفاجأت بسؤالها:

- هل تريد أن تعرف سبب مناداتي لك بمحمد؟

قلت مُخْمَنًا:

- لأنكم تجدون صعوبة في نطق اسمي بالطريقة المالية.

هزت رأسها نافية، تنهدت بعمق وقالت:

- بل لأنه اسم ابني بالتبني، الذي رحل عن عالمنا منذ وقت بعيد.

قلت لها:

- كلي آذان صاغية لسماع تفاصيل قصتك.

ربتت على كتفي، وبدأت تحكي:

- قبل ثلاثين عاماً، اقترنت بابن عمي «منير» فور عودته من الخارج، بعد قصة حب ملتهبة بدأت فصولها منذ الطفولة.

افتتحنا معاً هذا المطعم الذي منحني شرف اختيار اسمه، وعشنا بسعادة.. كان حلمنا هو إنجاب عدة أطفال، لكن مرت الشهور دون أن أتمكن من تحقيق هذا الحلم بسبب رحمة البور.

اقترحت على شريك عمري الارتباط بسيدة مطلقة من بلدتنا، كان قد سبق لها إنجاب طفلين، قبلت بالتضحية وبنزف مشاعري من أجله، إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً، ووعدني بأنه لن يتزوج على أبداً، ولهذا فهو مستعد للتخلي عن حلمه في الإنجاب كي لا يخسرني.

في منتصف التسعينات، لجأ إلى طنجة العديد من مواطني البوسنة والهرسك، هرباً من حرب التطهير العرقي للمسلمين التي كان هدفها هو محو الإسلام ومعتنقيه من هاتين الدولتين البلقانيتين، هذه الحرب التي دامت لثلاث سنوات، وخلفت مئات الآلاف من القتلى، لذا صُنفت كأبشع جريمة ضد الإنسانية في القرن العشرين، مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية.

من بين اللاجئين، كان هناك أربعة أيتام صغار، تم إيداعهم في ميثم بانتظار أن يعثروا على أسر تكلفهم، من جملتهم كان ابني الأشقر البريء البالغ من العمر ست سنوات، قد نجا بأعجوبة من مذبحه «سربرنيتشا» التي فقد فيها أسرته، إلا أنه كان يحمل آثار جراح جسدية ونفسية عميقة، علاوة على مخلفات المجاعة.

قمت أنا وزوجي بتبنيه، فرحنا كثيرا لأن الدنيا قد أهدتنا أخيرا طفلا، بعد سنوات عجاف من الانتظار.

لكن صحة صغيرنا محمد كانت تتداعى يوما بعد آخر، رغم محاولتنا علاجه، وذات صباح ممطر، دخلت إلى غرفته لأوقظه، وسقطت أرضا من فرط الصدمة، كان قد رحل إلى العالم الآخر في أثناء نومه، كان يتخذ وضعية الجنين ما جعله يبدو كأنه يضع رأسه فوق ركة أمه.

بكت بحرقة، قبل أن تمسح دموعها، وتأخذ جوالها، لتريني صورها مع زوجها وابنها الراحلين قائلة:

- لم تتبق لي إلا هذه الصور التي التقطت لحظات سعادتني المنفلتة، والتي نسختها في هاتفها لأحملها معي أينما كنت.

واسيتها، أعطيتها كوب ماء، أمسكته وهي ترتجف، أخذت منه رشفة وأكملت:

- بعد بضع سنوات على رحيل ابني محمد، أصيب زوجي وحببي بمرض عضال، كان شفاؤه ميؤوسا منه، رافقته طوال فترة مرضه، في حين كان

أشقاؤه وشقيقاته يأتون لزيارته وهم يتصرفون كما لو أنهم ينتظرون موته بفارغ الصبر من أجل الحصول على حقهم من الميراث، لاحظ منير ذلك لذا أصدر على أن يكتب لي جميع أملاكه، رفضت في البداية، لكنه قال لي جملة رسخت في ذهني:

- «كنت أظن لسنوات أن لي أشقاء محبين، لكنهم خذلوني، وأحرقوا الحبل السري الذي كان يربطنا، ولهذا أريد أن أضمن مستقبلك، أخشى ما أخشاه هو أن يطردوك من بيتنا بعد موتي، ويستولوا على المطعم وكل ممتلكاتنا، أنا الآن شجرة واهنة، بلا جذور، وأنت عائلتي الوحيدة».

توفي بعد صراعه مع المرض الذي هزمه بعد جولات طويلة، بعدها، بدأ أشقاؤه -أبناء عمي- بالاقتتال مع أشقائي، كان كل واحد منهم يرغب في الظفر بقطعة من الكعكة المسمومة المسماة بالثروة التي أحملها بين يدي، لم أرَ داعيا لهذه الحرب العائلية، بما أنني أعلم مسبقا أنهم سيرثون كل شيء بمجرد وفاتي لأنه ليس لدي أبناء، لكن أحد أشقائي صرح لي ذات زلة لسان بأنهم يخشون أن أتبنى طفلا يتيما وأهب له ثروتي بأكملها.

الأنكى من هذا كله أنهم شرعوا في التحكم بي، ورغبوا في تزويجي بشقيق زوجي كي تظل الثروة محصورة في نطاق العائلة، رفضت بشدة الارتباط برجل آخر بعد زوجي وقررت الوفاء لذكراه، كما بقي وفيًا لي إلى آخر نفس.. هل تتصور أنهم يعارضون تسييري للمطعم متذرعين بأنني أرملة وهذا الأمر لا يتوافق مع تقاليدنا البالية، التي تحكم على المرأة الأرملة أو المطلقة بالسجن المؤبد داخل منزل أهلها إذا ما تجرأت على رفض الزواج مجددا.

سألتها:

- لماذا لم تفكري في تبني طفل متخلى عنه بعد رحيل ابنك وزوجك؟

قالت بمرارة:

- منذ سنين وأنا أحاول.. أتقدم دوما بطلب كفالة يتيم أو يتيمة، لكن مسطرة كفالة امرأة وحيدة مثلي ليتيم جد معقدة.

انتهى دوامنا، تمنينا ليلة سعيدة لأمنا تلايتماس، سرت قليلا مع نورس، إلى أن عثرنا على سيارة أجرة قبل سائقها بإقلالنا، امتطيناها، بعد لحظات من الصمت، سألته:

- عزيزي نورس، هل لك أن تخبرني عن هوية ذلك الرجل الغامض الذي يظهر في إحدى الصور المعلقة على حائط المطعم، وهو يسند رأسه إلى لوحة خلفية، وكأنما يرغب في العبور إليها ليصير جزءا منها؟

أجابني:

- إنه الكاتب المغربي العالمي الراحل «محمد شكري»، أخبرتني تلايتماس بأنها اختارت هذه الصورة بالذات لأنها أظهرت الطفل المختبئ بداخل شكري، الكاتب الأسطوري الذي لُقّب بالشحورور الأبيض، كان شكري ريفي الهوية طنجي الهوى رجلا عصاميا ومكافحا، تحدى ظروف طفولته القاسية التي عانى فيها من الفاقة والأمية والمجاعة إبان الحرب العالمية الثانية.. تحدى الجميع ليحقق حلمه في الدراسة والتعلم بعد تجاوزه العشرين، ليكتب بعدها

سيرته الذاتية الثلاثية الشهيرة المثيرة للجدل، والتي كتب فيها عن العوالم السفلية لطنجة مَطهر الفردوس والجحيم حسب قوله.

تدخل سائق سيارة الأجرة قائلاً:

- ندين بالكثير لهذا العملاق الذي كتب عن الفقراء والمهمشين والمنسيين، وعن طنجة كما لم يكتب عنها أحد من قبل، كنت أصادفه في مقهى الحافة بعدما حقق شهرة عالمية، ورغم ذلك كان متواضعا وشعبيا، يبتسم ويتحدث مع الجميع.. عكس بعض الكُتاب الآخرين المصابين بداء التعالي.

قبل أن نفترق أنا ونورس، قال لي:

- سأقرأ على مسامعك أسطرا شعرية من قصيدة «طنجيس» التي كتب فيها شكري عن هذه المدينة التي قال إنه رأى في عينيها كل نزوات العقل:

- «يحكون عن كنوزك القديمة:

أن الغزاة هربوا أوارها.

يحكون أن حلمك البعيد،

يجيء خجلانا ويمضي رائعا.

يُحاور النفي الذي يحاصر المدى،

هوية التيه الذي يبدأ حين ينتهي،

هوية السقوط،

هوية العزاء في الجرح الذي لا يلتئم،

هوية الغياب والقمامة».

\*\*\*

## -٨-

عثر عبدول أخيرا على عمل، بعد أن وافق أحد معارف ميكائيل على تشغيله كحارس موقف للسيارات قريب من مسكننا المؤقت بحي فال فلوري، كان عمل عبدول الجديد مناسبا لوضعه الصحي، إذ لم يكن يتطلب منه إلا مساعدة السائقين في ركن سياراتهم والجلوس لحراستها، كنا في منتصف شهر أبريل عندما عرض علينا جورج الخروج للاحتفال بوظيفة أخينا الأحمق. كان يوم الأحد الذي يصادف عطلتنا الأسبوعية المستحقة أنا وجورج.

توجهنا نحو الشاطئ، سرنا فوق رماله الدافئة، فجأة جلس عبدول ودفن قدميه تحت الرمال، وقال:

- قيل لي إن هذه الرمال لها قدرة سحرية عجيبة على شفاء المفاصل، ربما أشفى أخيرا من لعنة العرج!

فغرنا فاهينا أنا وجورج ثم ضحكنا من حمق وسذاجة عبدول، الذي لم يأبه لنا، وظل رابضا في مكانه وهو يغني أغنية من الفلكلور البمباري.

بعد جهد جهيد، اقتنع عبدول بالتحرك من الرمال التي التصقت به، ساعدناه على النهوض ونفض ملابسه لنكمل جولتنا.

غادرنا الشاطئ، توقفنا أمام كشك يبيع بطاقات بريدية عليها صور معالم تاريخية مغربية، ابتعت أربعة منها لأرسلها إلى أمي وشقيقاتي الثلاث.

جلسنا في مقهى صغير متخصص في العصائر، وارتشفنا بلذة كوؤوسا من عصير الشوفان، تأملنا الغروب، بدا لنا كما لو كانت الشمس تذوب في أحضان البحر الذي يعانقها بشغف عميق.

بمجرد خروجنا من المقهى، سمعنا طفلا يصيح:

- انظروا إلى هذه الفخّمات المحترقة التي تمشي على قدمين!

التفتنا بذهول لنعرف هوية شاتمنا، وجدنا مجموعة من الأطفال المتشردين الذين لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، كانوا يرتدون أسمالا بالية، أغلبهم كانوا يغطون أنوفهم بخرق مهترئة، يستعملونها لاستنشاق دهان تلميع الأحذية، ذي الرائحة النفاذة المخدرة، وجهوا إلينا إشارات بذئبة بأصابعهم القذرة، قبل أن يلاحقونا وهم يصفقون ويرددون بإيقاع سريع:

- إيدز.. إيبولا.. إيدز.. إيبولا.. إيدز.. إيبولا!

انتفخت أوداج عبدول من فرط الغضب، استدار نحوهم وقال لنا:

- اتركوني ألوي أعناقهم!

أمسكناه بصعوبة بالغة، هدأه جورج قائلا:

- إنهم مجرد أطفال مخدرين وبائسين، لا تلق بالالهم.

واصل الأطفال مطاردتهم المحمومة لنا، المرفوقة بأنشودتهم الشريرة، نفذ صبر جورج وباغتنا حين التفت وصاح بهم وهو يقوم بحركات مخيفة:

- هيا تبخروا من أمامي قبل أن أنقض عليكم وألتهمكم!

ارتسم الرعب في عيون الأطفال المحمرة، ثم ركضوا ليختفوا بسرعة الضوء.

قهقهنا طويلا، واستأنفنا تسكعنا.

توقف جورج فجأة في حديقة جانبية، والتقط جروا بُتيا، مسح على رأسه بحنو، وقال لنا:

- إنه جرو تائه وخائف، سنأخذه معنا إلى البيت لنعتني به، فعلى الأقل،

الكلاب تحبنا وتتقبلنا كيفما كان شكلنا.

\*\*\*

## -٩-

لم يسبق أن تخيلت طوال حياتي إمكانية خوضي لمغامرة مثيرة وخطيرة في الآن ذاته، إلى أن دعاني نورس لمرافقته في فاتح مايو إلى كازينو طنجة، لنستمع بوقتنا ونسهر لحضور عرض حبيبته الراقصة أناستازيا.

استعرت بذلة جورج ليكون مظهري لائقا بذاك المكان الفخم، الذي لم أظأ مثله من قبل، التقيت بنورس الذي كان متأنقا للغاية، بوسط المدينة، أقلتنا سيارة أجرة إلى مرتع الأحلام والأوهام.

صافح نورس رجل أمن خاص، بدا لي أنهما يعرفان بعضهما جيدا، تفحص الرجل الضخم وجهي وهندامي، وسمح لنا بالدخول.

قبل أن نتوجه إلى المطعم الذي تقدم فيه العجرية أناستازيا عرضها الراقص، أوقف نورس المصعد الزجاجي الذي أوصلنا إلى الطابق الثاني المخصص للقمار، كانت طاولات البلاك جاك والروليت غاصة بمدمني الوهم، الذين يدخلون السيجار الرفيع ويتلذذون بالكافيار وهم يرتشفون من كؤوس المدام، لفتني أن هذه الطاولات التي تمارس لعبة الإغواء على المقامرين لا تُدار إلا من قبل شبابت حسناوات، يظهر جليا من ملامحهن أنهن من أصول أوروبية.

لم أرَ فخامة وترفا مماثلين طيلة حياتي، تذكرت مثلنا البمباري القائل:

- «الرزيلة لا تكمن في الغنى وإنما في البذخ».

لم أستوعب تلك التناقضات الصارخة بين الفقر والغنى، والحكمة والجنون، والفضيلة والرزيلة بطنجة، قلت ملاحظتي هذه لنورس فأجابني:

- طنجة هي مدينة التناقضات بامتياز.

صعدنا إلى الطابق الثالث الذي يضم المطعم المطل على مسبح الكازينو، كان ممتلئا عن آخره برجال من جنسيات مختلفة، تظهر عليهم سمات الثراء

الفاحش، انتبهت إلى أحدهم، كان ذا ملامح هندية أو باكستانية، سألت

نورس باستغراب:

- أهناك مواطنون هنود أو باكستانيون مقيمون بطنجة؟

رد قائلاً:

- كانت طنجة منطقة دولية في عهد الحماية، وظلت كذلك بعد الاستقلال، يمكنك أن تلتقي في أزقتها بأناس قدموا من شتى أصقاع العالم، واستقروا بأرضها الساحرة.

جلسنا في الطاولة التي حجزتها لنا مسبقا عشيقة نورس، وقدمت لنا نادلة ممشوقة القوام أكالات شهية.

بعد لحظات، اعتلت أناستازيا المنصة المخصصة للعرض، بعدما دخلت وهي تتبختر كأميرة رومانية على أنغام الموسيقى الشرقية، كانت فاتنة بشعرها الأحمر المموج، بعينيها الزرقاوين وببذلة رقصها الحمراء القانية، التي تظهر أكثر مما تخفي، وبخلاخلها الذهبية، أغمضت عينيها وشرعت في التمايل كما تتمايل الأفعى على إيقاعات الناي، كانت تقوم بحركات مثيرة بطنها المسطح، وكان جسدها يهتز بأكمله كورقة في مهب الريح، تعالت الموسيقى، انتفضت أناستازيا كممسوسة تبحث عن خلاصها في طقس طرد الأرواح، قبل أن تسقط بطريقة مسرحية فوق أرضية المنصة، على وقع النغمة الأخيرة.

كدت أصاب بالصّم من جراء التصفيق الحار المتواصل، وهتافات الرجال الذين استسلموا لغواية أناستازيا، صعد العديد منهم إلى المنصة بسرعة جنونية، وبدأوا في نثر حفنات تعد فلا تحصى من المال على مفاتن جسدها، حتى كادوا يدفنونها تحت الأوراق المالية، بدا الانزعاج واضحا على نورس بعدما اقترب رجل ضخم الجثة، حليق الرأس من أناستازيا، أمسكها ورفعها بين يديه ثم قبّلها، اندفع نحوه نورس بغضب وصرخ في وجهه:

- لا تلمسها أيها المنحرف، إنها حبيبتي أنا!

خيم جو كثيف من الصمت بعد أن أنزل الرجل الأصلع أناستازيا من بين يديه، قبل أن يخرج مسدسه اللامع بحركة هوليوودية، ويصوبه نحو رأس نورس قائلا:

- من تحسب نفسك لتعترض طريقي أيها العربي المخنث؟ اغرب عن وجهي وإلا فجرت رأسك! من الآن فصاعدا، هذه الراقصة ملكي، أنا إمبراطور هذا المكان.

ما أن أكمل جملته حتى اقتحم رجال الأمن الخاص المطعم، ليسحبونا خارجه أنا ونورس، ويلقونا على قارعة الحلم، أو بالأحرى الوهم.

بكى نورس بلا توقف، جراء شعوره بالمهانة، حاولت تهدئته، في طريق عودتنا، قال بانكسار:

- نجح تاجر السموم البيضاء -الذي يعتقد أنه بوسعه اشتراء العالم بأسره بأمواله القذرة - في بعثرة كرامتي، بعدما كنت بالأمس القريب، رجلا شامخا،

أبياً.

\*\*\*

## -١٠-

لم يأت نورس إلى المطعم في صبيحة اليوم الذي تلا حادث الكازينو، قلقَتْ عليه أمي تلايْتماس كثيراً، طمأنتها بقولي إنه قد يكون مريضاً، اتصلنا به عدة مرات لكن هاتفه أصيب بخرس فجائي.

في الصباح الموالي، جاء إلى أنوال، اعتذر لأمنا تلايْتماس، كانت حجة غيابه هي تعرضه لوعكة صحية مفاجئة، قبلت عذره، فدخل إلى غرفة تغيير الملابس وهو شارد، التحقت به لأسأله عن السبب الحقيقي الكامن وراء غيابه، حكى لي أنه قضى صباح اليوم الماضي على عتبة بيت أناستازيا، التي لم تعد إلى شقتها إلا بعد الظهر.. فطن إلى أنها قد قضت الليلة مع إمبراطورها الجديد.

وجهت إليه نظرات قاسية، ثم دعتَه إلى الدخول، وأحس بخنجر مسموم يخترق قلبه لدى سماعه قولها:

- لقد انتهى كل شيء بيننا، لأنني لن أسمح لك بالتحكم فيّ، إذا كنت رجلاً شرقياً غيوراً، أنصحك بتوفير غيرتك المرضية هذه من أجل استعراضها أمام الفتيات العربيات، لأنها لن تجدي نفعا مع امرأة غجرية أوروبية حرة مثلي، لأنني أفعل ما يحلو لي دوما رغماً عن الجميع، ورغماً عن الحياة، لا تهمني

الوسيلة بقدر ما تهمني الغاية، وغايتي هي تحقيق حلمي في الهجرة إلى أمريكا، لا الارتباط برجل مثلك لن يورثني إلا شقاء أبديا.

فقد عتاده اللغوي بعدما أضافت:

- سأعترف لك بسر أخفيته عنك لمدة طويلة، وقد آن أوان إخراجي له من علبة أسراري، في الحقيقة، لم أحبك طوال علاقتنا التي امتدت لما يناهز الثلاث سنوات، العجريات مثيلاتي لا يقعن في الغرام أبدا، لأن المهمة المنوطة بهن منذ الأزل هي الإيقاع بالرجال في شباكهن، وسرقة قلوبهم، ببساطة اخترتك لأن وسامتك الشرقية أثارتني، وجعلتني أرغب في الاقتراب من تلك الهالة الشبقية التي تلف العرب، كل ما كان بيننا، مجرد علاقة جسدية خالصة لا مكان للحب الغبي فيها، ليس ذنبي أنك أخطأت وأحبتني، لأنه ما كان عليك أن تهوى امرأة تربت مذ كانت صغيرة على عدم التعلق بمكان محدد أو بشخص معين.

أنهى سرده، عانقته مواسيا، تنهد بحزن وقال:

- اكتشفت أن حبي كان بالنسبة إليها مجرد قاعة ترانزيت، استراحت فيها قليلا قبل أن تستأنف رحلتها وتتركني ملتصقا بكرسي الأمان، ممسكا بين يدي بقايا ذكريات محترقة، وأحلام مُرَمَّدة.

بعد أسبوع على هجر الساحرة العجورية لنورس، علمتُ منه أنها اختفت كما لو أنها لم تكن موجودة يوما.. سأل عنها صاحبة المبنى الذي كانت تقطن به، قالت له إنها تركت لها مفتاح الشقة مع الحارس وذهبت دون أن تودعها، اتصل بزميلتها في الكازينو، الراقصة الأوكرانية «أولغا»، وسقطت سلة

أحلامه من يديه إثر إخبارها له بأن أناستازيا قد توقفت عن العمل وتوجهت إلى القارة الأمريكية، بعد أن جمعت المبلغ الكافي الذي سيُخول لها افتتاح مدرسة صغيرة لتعليم الرقص الشرقي.

أدرك نورس أن أناستازيا تغذت على أوهامه طيلة سنين، وأنها مارست عليه لعبة الخداع والتوهيم، حين وعدته بأنها ستعتزل الرقص ليتزوجا ويذهبا معا إلى أمريكا ثم يجهزا الأوراق اللازمة لتمكن والدته وشقيقتها من الالتحاق بهما، بعد أن استعصى عليهم اللجوء إلى ألمانيا.

قال لي نورس:

- الحب لم يُخلق لي، والحلم كذلك.. لذا، سأكتب عنها لعلني أنجح في دفنها بين سطور كتاباتي، وأتخلص من وهم حبها الفتاك وأحرق طيفها، كما أحرقت حبنا ونثرت رماده في محيط المنسي، ومضت بعدما أهدتني قروحا استوطنت أوردتي.

اختفت العجورية سارقة القلوب والأحلام، وباختفائها، توقف نورس عن الحلم وأقلع عن الوهم.

\*\*\*

- ١١ -

مرت أيام على رحيل أناستازيا، خلالها تدهورت حالة نورس النفسية والصحية، شحب لونه وذوت عيناه، سألته عما أصابه، فأجابني:

- لا داعي لأن تشغل بالك بي، إنها فقط أعراض انسحاب الحب من القلب.

صار يخلط بين طلبات الزبائن، ويشرد كثيرا كلما زاره شيطان الشعر، قبل أن يركض فجأة ليدون خواطره في دفتره، في كل مرة كان يفعل ذلك، كانت الببغاء الشريرة تصيح:

- مجنون.. مجنون!

ذات ليلة حارة أعارني دفتره قائلا:

- أسلمه لك لتقرأ خواطري وأشعاري الرهينة في دفثري، المعتقل السري لأفكاري، لكن أرجوك أن تقلب صفحاته بحذر شديد كي لا تلوث يديك بدم قلب اللاجئ الموحوع.

أخذت دفتر «وجع اللاجئ» إلى البيت، وشرعت في تقليب صفحاته بحرص كما أوصاني نورس، كان الدفتر مُقسما إلى قسمين، الأول دَوّن به أشعار وأقوال الأدباء العظماء، والثاني كان مخصصا لخواطره وأشعاره.

في القسم الأول، قرأت أشعارا واقتباسات مذهلة، كتب نورس على هامشها ملاحظة تقول:

- «إن هذه الأشعار تبدو كتابات استباقية، كأن هؤلاء الشعراء الأفذاذ قد وجدوا منفذا سحريا إلى وقتنا الحالي، واطلعوا على مآسيه وحروبه في أثناء نظمهم لها».

راقتني تلك القصائد الصالحة لكل زمان ومكان، لذا نسختها:

- «تقاذفتني بحار لا ضفاف لها..

وطاردتني شياطين وأشباح..

ما للعروبة تبدو مثل أرملة؟

أليس في كتب التاريخ أفراح؟

والشعر ماذا سيبقى من أصالته..

إذا تولاه نصاب ومداح؟

وكيف نكتب والأقفال في فمنا؟

وكل ثانية يأتيك سفاح؟»

القصيدة الدمشقية / نزار قباني

...

- « ستفتش عنها يا ولدي

في كل مكان..

وستسأل عنها موج البحر..

وتسأل فيروز الشيطان..

وتجوب بحارا وبحارا..

وتفيض دموعك أنهارا..

وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارا..»

قارئة الفنجان / نزار قباني

...

- «هذا أنا..

عمري ورق..

حلمي ورق..

طفل صغير في جحيم الموج..

حاصره الغرق..

ضوء طريد في عيون الأفق..

يطويه الشفق..

نجم أضاء الكون يوما واحترق..

لا تسألي العين الحزينة

كيف أدمتها المُقل؟

لا تسألي النجم البعيد

بأي سر قد أفل؟»

لو أننا لم نفترق / فاروق جويده

...

- «ولو تُخِرت في وطن

لقلْتُ هواك أوطاني..

ولو أنساك يا عمري

حنايا القلب تنساني».

(في عينيك عنواني / فاروق جويده)

...

- «دمشق.. انتظرناك كي تخرجي منك..

كي نلتقي مرة خارج المعجزات..

انتظرناك.. والوقت نام على الوقت..

والحب جاء.. فجئنا إلى الحرب..

دمشق الندى والدماء..

دمشق النداء».

طريق دمشق / محمود درويش

...

- «نحن أحياء وباقون.. وللحلم بقية».

محمود درويش

...

في القسم الذي خصه نورس لخوابره وأشعاره، قرأت:

- «ثمة حزن يحتجزنا في دهاليزه المظلمة، محطما الرقم القياسي للاعتقال الاحتياطي، حزن يمارس علينا شتى صنوف التعذيب بسادية مطلقة..

ثمة حزن يجتاحنا كالإعصار، ويدمر كل ما تبقى فينا، مثلما تدمر جيوش الاحتلال آثار الحضارات القديمة».

...

- «الحلم..

الحلم استحال كابوسا..

يسفك دم استيهاماتي..

لذا أقلعت عن النوم..

الوهم..

الوهم صار حقيقة..

وأنا بين الوهم والحقيقة..

أتمايل فوق أرجوحة من ألم».

...

آخر ما خطه نورس في دفتره كان قصيدة «كازينو المصائر»، التي كان واضحاً أنه استوحاها من ليلة إعدام حلمه:

- «الحياة راقصة غجرية..

تمارس لعبة الإغراء

في كازينو المصائر..

وتسلب مفاتها عقول الضعفاء..

تتلوى أمامهم كأفعى مغوية..

وتبتسم في وجوههم ابتسامات مأكرة..

الحياة راقصة غجرية..

ترقص فوق قلوب عاشقيها معصوبي الأعين،

وتحفر في أوردتهم تعاويذها السحرية

ليزدادوا تعلقا بها.. وبوهم حبا..

وينذروا أعمارهم للاستمتاع بها

بعد طول اشتها..

لكنهم لا يدركون أن محبوبتهم الراقصة

تتغذى على أوهامهم وأحلامهم..

وأنها تتحين الفرص لتقترب منهم

قبل أن تدس يدها الناعمة بخفة

في جيوبهم المنتفخة أملا..

لتسرق منهم آمالهم الزائفة

وتبدد أحلامهم في الهواء..

وهي تضحك ضحكة مدوية

وتسخر من غباء عاشقيها الذين أضاعوا أعمارهم

متعلقين بوهم الظفر بفجرية حسناء..

الحياة راقصة غجرية..

تسرق أحلام ضحايا إغوائها

ثم تختفي..

تاركة صدى رنين خلاخلها الذهبية

يتردد في الفضاء».

\*\*\*

## -١٢-

بإطلالة هلال رمضان، حصلنا على إجازتنا السنوية، في أحد الأيام، توجهت رفقة نورس إلى مغارة «هرقل» ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي.

دخلنا إلى هذه المغارة الأسطورية، سرنا بين سراديبها التي تتماهى مع متاهة حجرية لا نهاية لها، أحببت جوها الغامض، الأسر، الذي تضفي عليه الفوانيس التي تنير عتمة هذه السراديب التحت-أرضية شاعرية لا تضاهى.

وقفنا أمام الفجوة المطلة على النقطة التي تمتزج فيها مياه هذين البحرين المختلفين، هذا التجويف الصخري المرتفع الذي تنبعث منه أصوات تلاطم الأمواج.

قال لي نورس، الذي كان يعلم أنني أهوى جمع الأساطير والحكايات:

- تُسجت العديد من الأساطير حول هذه المغارة العجيبة التي تم تعميدها كأكبر مغارات إفريقيا، لكن الأسطورة التي يُجمع عليها معظم سكان المغرب هي تلك التي تحكي أن هرقل العملاق الجبار، تم سجنه من طرف آلهة الإغريق الناقمة عليه داخل هذه المغارة، وذات يوم، لم يعد قادرا على التحمل، فغضب غضبا شديدا جعله يضرب هذا الحائط المائل أمامنا، ليكسر أصفاده المتينة، ومن فرط قوة ضربته، أحدث هذا التجويف الصخري الذي يشبه إلى حد بعيد خريطة قارة إفريقيا، وتسبب في انفصال قارتي إفريقيا وأوروبا، لتختلط مياه البحرين العظيمين.

قُبيل أذان المغرب، دعوت نورس إلى بيتنا ليتناول معنا الفطور ويتعرف أخيرا على أخويّ جورج وعبدول، وصلنا إلى البيت، وجدناهما يضعان اللمسات الأخيرة على مائدة الإفطار، رحبا بشدة بنورس صديقي الشاعر الذي حكيت لهما الكثير عنه.

كان جورج قد قرر أن يصوم شهر رمضان بأكمله معنا، الشيء الذي لم يفاجئ نورس، الذي أخبرنا أن العديد من مسيحيي سوريا يحرصون على صيام هذا الشهر الفضيل مشاركة منهم لإخوتهم المسلمين.

كان الجو حارا، لكنني رغم ذلك، لم أجد مشقة في الصيام، كون طقس المغرب أقل قسوة في الصيف من طقس بلدي، المصنف كأحد أكثر البلدان حرارة على وجه الأرض.

تعاونًا على حمل مائدتنا الصغيرة إلى سطح المبنى، لنفطر في الهواء الطلق، ونتمتع بمنظر غروب الشمس التي يبتلعها الجبل الشاهق الذي يلوح من

سطحننا.

تعالَت أصوات المؤذنين، معلنة حلول وقت الإفطار، أكلنا بضع تمرات ثم أدينا صلاة المغرب وبعدها تناولنا إفطارنا، أحببت النكهة الخاصة والطقوس الروحانية التي تميز هذا الشهر الكريم بهذه البلاد التي احتضنتنا.

قصدنا مسجد «سوريا» أو جامع السوريين كما يطلق عليه أهل طنجة لنؤدي صلاة التراويح، وعدنا إلى البيت، وجدنا جورج منشغلا بإطعام جروه الذي أطلق عليه اسم «بوني»، دخل نورس إلى المطبخ، وحضر لنا أكلة الفلافل السورية، في حين كنت أنا وجورج قد حضرنا مسبقا طاجين اللحم بالبرقوق واللوز والسّمسم، إضافة إلى الكسكس المالي، تناولنا عشاءنا ثم تسلينا قليلا بلعب الورق ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول عادات وتقاليد بلداننا المختلفة في شهر الصيام.

شغلنا التلفاز الصغير الذي ابتعناه أخيرا من سوق «كاساباراطا» لتنهال علينا صور مجازر الإبادة المستمرة لمسلمي بورما، والقصف المكثف لسوريا، والذي لم يتوقف حتى في شهر الغفران.

أطفأ جورج التلفاز اللعين الذي يحرص على تذكيرنا بأوجاعنا وماسينا المشتركة، تنهد نورس وقال:

- هناك من يعيش إشعال فتيل الفتنة في بلده، ويقف مستمتعا بمحارق أبناء جلدته، كأن جده الأكبر هو «نيرون».

\*\*\*

في ليلة القدر العظيمة، التي تُشرع فيها أبواب السماء، قصدنا ضريح «سيدي بوعراقية» الرجل الضليع في علوم الدين والفقه، والمنحدر من سلالة شريفة تربطه بالمولى إدريس، والذي أطلق عليه أهل طنجة هذا اللقب كونه كان يضع على رأسه عمامة خضراء اشتهر بها أهل العراق في ذلك الحين.

عبرنا باب الضريح لنقوم بإحياء هذه الليلة المباركة، تفاجأت حين قال لي نورس:

- أتمنى أن يغفر الله لي خطاياي وضعف نفسي أمام الإغراءات والنزوات.

أجبتة:

- «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». كما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كلنا نحمل أوزارا ثقيلة على أكتافنا، لكن الله غفور رحيم.

شعرنا بالسكينة تغمرنا ونحن نردد خلف الشيخ المتصوف:

- «اللهم اجعلني لك شاكرا، لك ذاكرا، لك راهبا، لك مطواعا، إليك مُخبتا، إليك أوaha منيبا، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي، وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسل سخيمة قلبي..»

اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي

بالماء والثلج والبرَد..

ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على  
الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف

عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

\*\*\*

# أضغاث أحلام

فإذا بك ضاق الذرع فقل.. اشتدّي أزمة تنفرجي

(ابن النحوي- قصيدة المنفرجة)

-١-

هاتفني أماديا في منتصف شهر أغسطس، لتفاجئني بقولها لي إنها في طنجة منذ ثلاثة أيام، صرحت برغبتها في الالتقاء بي قبل صعودها على متن قارب الحلم، فجر الثلاثاء المقبل، بهدف العبور إلى إسبانيا، ضربت لها موعدا مساء يوم الأحد بأحد المقاهي المعروفة، القريبة من الكورنيش.

شُرت كثيرا لدى رؤيتها تتجاوز الباب الزجاجي للمقهى، كانت تبدو جذابة للغاية بصفائها الجميلة، وبثوبها المزركش، عانقتها طويلا ثم جلسنا، طلبت من النادل أن يجلب لها كوبا من الكوكتيل الاستوائي، تحدثنا بلا توقف، هنأتها على نجاحها أخيرا في توفير المبلغ المطلوب من أجل العبور إلى الضفة الأخرى، المحدد بألفي دولار، ابتسمت لي وقالت:

- عزيزي مامادو، أعدك بأنني لن أنساك أبدا ولن أتخلى عنك.. لذا، إذا حالني الحظ في الوصول سالمة إلى إسبانيا، فإنني أعدك بالعودة من أجلك لنتزوج وأخذك معي، فور عثوري على عمل وتمكني من تسوية وضعيتي، وبعدها، ستلتحق بنا أمي الغالية وملاكي شاد، لنعيش جميعا بسعادة في الإلدورادو.

صمت قليلا وتابعت:

- لكن إذا حصل لي مكروه، وعبرت إلى الضفة الأخرى وأنا مجرد جثة مُزْرَقَةٌ منتفخة تطفو على سطح الماء، فإنني أوصيك بالاطمئنان على أمي وقلدة كبدي شاد، لأنني كل ما تبقى لهما في هذه الحياة

قلت:

- ستصلين وأنت حية ترزقين بإذن الله، لأنني متأكد من أن بائعة الأمل القوية تتخطى كل الصعاب.

وضعتُ يدها فوق يدي، وقالت بإصرار:

- عدني بأنك ستطبق وصيتي الأخيرة إذا ما متُّ، ليس لدي سواك، أرجوك مامادو!

شعرتُ بعُصّة، قبل أن أطمئنها وقلبي يعتصر ألما بأنني سأحرص على تنفيذ وصيتها ما دمْتُ حيا.

لمعت عيناها كنجمتين قطبيتين، وسألتنني:

- أتحمل معك ورقة وقلما؟

فتحت محفظة نقودي، أخذت منها ورقة صغيرة، وقمت لأستعير قلما من النادل، عدت إلى طاولتنا، أملت عليّ أماديا عنوان وهاتف والدتها، دونتهما بالورقة وخبأتها بعناية داخل محفظتي.

نظرت إليّ بامتنان قائلة:

- أتمنى أن تتمكن شاد من ولوج المدرسة، كي لا تصير في المستقبل نسخة مكررة مني.

أدرت دفّة الحديث، وقلت:

- ألا ترغبين في التجول قليلا بهذه المدينة الساحرة؟

ضحكت وردت ممازحة إياي:

- بلى، اعتقدت أنك لا تود اصطحابي في جولة استطلاعية خوفا من أن أكلفك الكثير أيها البخيل!

غادرنا المقهى، مررنا بمحاذاة الكورنيش، ثم قصدنا السوق الداخلي، تجولنا بالمحلات التجارية، راقني مشبك شعر مُطعم بأحجار ملونة، ابتعته لها كتذكار، شكرتني على هديتي وأكملنا سيرنا.

فجأة، قالت:

- في الليلة الماضية كنت نائمة في الغابة التي تُخبئنا فيها شبكة التهجير السري، في انتظار يوم العبور العظيم، راودني حلم مُبهم لم استطع فك شيفرته، لكنني مضطرة لأن أروييه لك.

في حلمي المزعج، رأيتك تائها في غابة ممتدة الأطراف، كان الضباب كثيفا، والبرد قارسا، رفعت رأسك نحو السماء، كان القمر في حالة خسوف، وما أن انتهى الخسوف، حتى استحال قمرا دمويا.

استمر تيهك لمدة.. قبل أن تتوقف أمام حاجز شاهق، مكون من أسلاك شائكة.. كانت هذه الأسلاك ملطخة بالدماء.

سألته بهلع:

- أليس لديك تفسير لهذا الحلم، أو بالأحرى الكابوس؟

وجهت إليّ نظرات حائرة، وأجابت:

- لا أعرف معناه بالضبط، ما أعرفه هو أنه عليكم أن تتوخوا الحذر، وتنتبهوا جيدا إلى إشارات السماء.. إياك أن تنزع التميمة الحمراء التي أعطيتك إياها، لأن قوتها السحرية ستوفر لك الحماية.

أشارت إلى معصمها، وقالت مبتسمة:

- لولاها ما كنا لنصل إلى طنجة بسلام..

فتحت حقيبة يدها، أخذت منها تميمتين مماثلتين، وضعتهما في راحة يدي، وقالت:

- أعطهما لعبدول وجورج، لا تنس أن تُبلغ تحياتي وامتناني لجورج الطيب الذي بفضلته عثرت على عملي بسوق فاس، قل له: أختك أماديا تقول لك: سنلتقي عما قريب.

\*\*\*

قبل نهاية يوم الثلاثاء، كان «أنوال» غاصا بزبائن من جنسيات متعددة، كنت منهنمكا في أخذ وجلب الطلبيات، وفجأة، توجهت أنظار الجميع نحو شاشة التلفاز، واغرورقت عينا سائحة إسبانية مسنة بالدموع.

كان مقدم نشرة الأخبار قد استهلها بخبر غرق قارب مطاطي كان يقل نحو ستين مهاجرا سريا من بلدان مختلفة، من بينهم مغاربة وأفارقة من دول جنوب الصحراء، إضافة إلى نساء حوامل وأطفال صغار.

أحسست بهزة قلبية قوية لدى رؤيتي لجثة أماديا في الريبورتاج لحظة انتشارها من طرف السلطات الإسبانية، أماديا التي ابتاعت تذكرة سريعة نحو الموت، الذي لم تدرك بحاستها السادسة أنها على موعد معه، يوم السفر العظيم، ولم يزرها حلم إنذاري فيه تحذير ينبئها بنهايتها، وبأنه حتى لو لم يوقف مركبها خفر سواحل الأحلام، فإن طيف الموت سيقبض روحها عند أول زقاق بحري هائج.

في ذلك اليوم، عرفت المعنى الحقيقي لمصطلح «قوارب الموت»، هذه القوارب التي يصعد على متنها الحالمون وهم يحملون معهم آمالهم في غد أفضل بعد وصولهم إلى الفردوس المفقود، وعرفت كذلك لماذا يُلقبون هذا البحر الذي يتهياً لنا أنه هادئ ومُقهَّد بالمقبرة المتوسطة.

انهرت باكيا، تحسست تميمة أماديا، تلك التميمة التي لم تحمها من قدرها المحتوم رغم أنها كانت لا تفارق معصمها.

أماديا الساحرة التي انقلب سحرها عليها، لذا، لم تساعد طااسمها وتعاويذها في النجاة والعبور إلى جزيرة الأحلام وهي لا تزال على قيد

## الحياة والأمل.

رحلت أماديا بائعة الأمل إلى عالم خال من الوجد، بعدما أنارت ظلمة كهف وحدثي للحظات وجيزة.. انطفأت بسرعة شمعة، كما انطفأت شعلة الحياة في عينيها المشعنتين ببريق الحلم الزائف.

واستني أمي الروحية تلايتماس، لكنني لم أتمكن من حبس سيل دموعي الحارقة، لأن المشاهد الرمادية للقاء وداعي لأماديا بقيت تعرض أمام عيني على شاشة الأسي، ذاك الأسي الذي كبلني في مكاني طويلا، كما بقيت وصيتها الأخيرة لي تتردد في أذني بلا توقف، كأسطوانة موسيقية قديمة، حزينة، منسية فوق قارئ أسطوانات أثري.

بعد رحيل أماديا، وعدتني أمي ثلاثيتماس بتسوية وضعي أنا وأخويّ عبدول وجورج كي لا نلقى المصير ذاته.. أخبرني نورس بأنه سبق لهذه السيدة العظيمة -التي بعثها الله لنا لتضمننا تحت جناحيها- أن سوّت وضعه ووضع والدته وشقيقتيه اللتين تمكنتا بفضلها من ولوج الجامعة.

عرضت على جورج فكرة تسوية وضعنا، كي لا نظل مهاجرين سريين خائفين، وفاجأني حين رفض عرض ثلاثيتماس، ودعاني إلى تسوية وضعي أنا وعبدول فقط، قائلا إن مشغله الفرنسي سيباستيان قد وعده مسبقا بذلك.

\*\*\*

بداية شهر سبتمبر، اقترح علينا جورج الذي كان متأثرا للغاية بالمصير  
المأساوي الذي لقيته أماديا، المساهمة معه في جمع مبلغ من المال من أجل  
إرساله إلى أمها المكبوتة وابنتها شاد، حينها، قال لي جملة مؤثرة نُقشت في  
ذاكرتي:

- حتى لو لم أكن موجودا ليلة المذبحة لأساعد ابني ليونيل، فعلى الأقل  
يمكنني مد يد العون إلى الصغيرة شاد، عساني بذلك ارتاح قليلا من التعذيب  
المجوسي الروحي الذي أتعرض له كل ليلة.

لم نتردد ولو لثانية في جمع المساهمات، وضعت مساهمتي ومساهمتي  
جورج وعبدول في ظرف صغير، وأعطانا ميكائيل وأصدقائه قدرا من المال،  
كما ساهم معنا كل من نورس، تلايتماس، علياء، الخالة اعويشة، العم عبد الله  
ومساعده سالم بمبالغ متفاوتة كل حسب استطاعته وإمكانياته.

في النهاية، تمكنا من جمع ألف وخمسة دولار، اتصلت بأم أماديا التي كان  
جليا من طريقة حديثها أنها لا تزال تحت وقع صدمة الفقد، لأعلمها بأنني  
سأرسل لها في صباح اليوم الموالي حوالة مالية، شكرتني وهي تنتحب،  
ودعت الله أن يحفظني من كل مكروه، ويجنبني الأذى الذي تعرضت له  
ابنتها.

في ذلك الصباح، استأذنت أمي تلايتماس لأقصد إحدى وكالات تحويل  
الأموال، كي أبعث المبلغ المحصل إلى أسرة أماديا الصغيرة، أنجزت مهمتي  
وفي طريق عودتي إلى المطعم، لمحت مصادفة طفلة بائسة، متسخة، لا  
يتجاوز عمرها الست سنوات، تفترش الأرض في مكان لا يبعد كثيرا عن

مدخل إقامة سكنية فاخرة، تقع بشارع خلفي قريب من الشاطئ، دون أن يكثر لها أحد.

تأملتها قليلا، كانت في حالة مزرية، لاحظت أنها شاحبة، هزيلة، شعرها أشعث، هالني منظر وجهها الملائكي المغطى بكدمات قاتمة وجروح ملتهبة، كانت حافية القدمين، ترتدي ثوبا صيفيا قصيرا، ممزقا، يكشف عن آثار كيّ بالسجائر في ذراعيها وصدرها، كما كانت تعاني من حروق على مستوى ساقها، بدا لي كما لو كان أحدهم قد سكب عليها مياها ساخنة.

اقتربت منها، جفَلتُ لدى رؤيتها إياي، وانكملت في زاويتها، طمانتها بأني لن أؤذيها، عرفتها بنفسي ثم سألتها عن اسمها، أجابت بعد تردد:

- اسمي «غيثة».

جثوثُ على ركبتي، مسحت على وجهها بحنان، قبل أن أسألها عن سبب لها تلك الجروح والكدمات، انخرطت في البكاء، وقالت بصوت خفيض:

- كنت أقيم مع أمي عند مشغليها، توفي أبي عندما كنت رضية، ولهذا اضطرت والدتي إلى الخدمة في البيوت.. قبل شهر، تعرضت أمي إلى حادث سير مميت، وبعد وفاتها، أرغمني مشغلوها الأغنياء النافذين على القيام بالمهام التي كانت تقوم بها، كانوا يكلفونني بأشغال شاقة لا طاقة لي بها، ويستغلون أي فرصة أو خطأ لتعنيفي وتعريضي لشتى صنوف التعذيب، كوني ليست لدي عائلة، وليس لدي من يحميني بعد رحيل أمي.

قبل يومين، صبت مشغلتني متحجرة القلب زيتا مغليًا على قدمي، فقط لأنني لم أعرف طريقة كي الملابس، أغمي على من شدة الألم، لاستفيق في الصباح وأجد نفسي ملقاة في الشارع، ربما لأن مشغلتني وزوجها اعتقدا أنني سألفظ أنفاسي الأخيرة، ولهذا تخلصا مني.

حاولت السير جاهدة إلا أنني لم أستطع الوقوف على ساقي المحترقتين، فزحفت حتى وصلت إلى هذا المكان، لكن لم ينتبه إلى أحد، وبقيت هنا، أعاني من آلام فظيعة، وأكاد أموت جوعا وعطشا.

حملتها بين يدي، ورأسي يعج بالاحتمالات، لم أدر أين سأمضي بهذه الطفلة المعذبة، توقفت أمام متجر بقالة لأبتاع لها ما تسد به رمقها، صُقع الحاج صاحب المتجر حين رأى حالة غيثة، وسألني عما أصابها، حكيت له باقتضاب، تأثر كثيرا ثم أعطاني كيسا ملاءه بالكعك وعلب العصير، أبيت أن يقبض ثمن تلك الأغراض، وودعني وهو ويضرب كفا بكف، ويطلب من الله أن ينزل غضبه وعقابه على هؤلاء الوحوش الظلمة.

وسط حيرتي الشديدة، اهتديت أخيرا إلى مهاتفة الأم تلايئتماس، أخبرتها بأنني عثرت على طفلة يتيمة في حالة صحية حرجة، وتحتاج إلى مساعدة طبية عاجلة، بعد تعرضها للتعذيب على يد مشغليها، دللتها على مكاننا غير البعيد عن المطعم، بعد لحظات، قدمت مستقلة سيارتها، ترجلت منها بسرعة وأمارات القلق والفرع بادية على محياها، وما أن لمحت غيثة حتى أخذتها من بين يدي، قبلتها وضممتها إلى صدرها وقالت والدموع تفيض من عينيها:

- إنها هبة السماء لي بعد سنوات من الانتظار، سأخذها معي لأعالجها وأرعاها وأكفلها.

ساعدتها على وضع الطفلة في المقعد الخلفي للسيارة، وقبل أن تمضي في طريقها، التفتت نحوي قائلة:

- شكرا ابني محمد على إنقاذك لهذه الطفلة المسكينة، وعلى تحقيقك حلمي الذي أوشك على الاحتضار.

\*\*\*

## -٤-

فاجأنا جورج ليلة الخميس الأخير من شهر سبتمبر بدعوته لنا أنا وعبدول للخروج معه في يوم الغد، للاحتفال بعيد ميلاده، سُررنا لأننا كنا فعلا في حاجة ماسة إلى الفرحة، وطرده رواسب الحزن والكآبة التي علقت بأعماقنا وعمّرت معنا طويلا عقب رحيل أماديا.

في الصباح، رجوت أمي تلايئتماس أن تسمح لي بالمغادرة بحلول الساعة السادسة مساء، لأن ذلك اليوم يصادف عيد ميلاد نبراسنا وأخينا الغالي جورج، منحتني الإذن وطلبت مني أن أبلغ تهانيها له، وأمانيتها بأن يحقق حلمه في عامه الجديد.

غادرت «أنوال» وابتعت له مزهرية مزخرفة، ثم قصدت ساحة الأمم التي جعلناها نقطة التقائنا.

تنزهنا قليلا، أنعشنا النسيم الخريفي، توقف جورج فجأة وقال:

- تخيلا معي أنكما قد عثرتما لتوّكما على مصباح سحري، بعد دعه انبعث منه دخان كثيف، وتجسد لكما مارد الأمنيات ليطلب من كليكما أن يتمنى أمنية واحدة لهذه الليلة، اعتبراني مارد أمانيكما، فماذا ستطلبان؟

قلت بابتهاج:

- منذ مدة وأنا أرغب في الذهاب إلى السينما، علمت أنهم يعرضون هذا الأسبوع بقاعة «باريس» فيلم Mad Max.

صاح عبدول كمعتوه:

- وأنا أرغب في تأمل القمر والنجوم والبحث عن نجمتي الحارسة على شاطئ البحر.

فرك جورج يديه بحماس، وقال:

- سمعا وطاعة، طلباتكما مستجابة!

سرنا بخطى حثيثة، حتى توقفنا أمام مدخل السينما، ابتعنا التذاكر، واشترينا أكياسا من الفشار ورقائق البطاطس وقنينات الصودا، ثم تبعنا فتاة جميلة قادتنا إلى مقاعدنا، أعجبنا الفيلم كثيرا عشنا مع مشاهد الخيالية المثيرة، إلى درجة أننا فوجئنا بنهايته.

بعد خروجنا من السينما، دعوت أخويّ إلى تناول وجبة عشاء على شرف جورج، في مطعم مشهور بتقديم الأكلات البحرية، قبلا دعوتي بكل سرور،

جلسنا وطلبت أطباقا من ثمار البحر الشهية.

أعطيت هديتي وهي المزهريّة لجورج، وأعطاه عبدول هديته التي كانت عبارة عن حاملّة مفاتيح يتدلى منها حجر الأمايست الأخضر، كُتب عليها اسمه، قائلاً:

- قررت أن أهديك حاملّة المفاتيح هذه لأن هذا الحجر البلوري معروف بأنه جالب للحظ، وطارد للأرواح الشريرة.

ابتسم لنا جورج شاكرًا، أنهينا وجبتنا وتوجهنا إلى البحر لنحقق أمنية الطفل الكبير عبدول.

على الرصيف المقابل للشاطئ، صادفنا قزما بشوشًا، أنيقًا، يرتدي بذلة سوداء وحذاء صغيرًا لامعًا، ويضع في معصمه ساعة ذهبية فاخرة، كان قد غادر للتو ملهى ليليا ليقتصد ملهى الفندق المجاور، صافح حارسي الأمن الخاص واختفى بالداخل.

علق عبدول:

- هل رأيتما هذا القزم العجيب الذي يستمتع بوقته؟ أحيانا، تبدو لي طنجة مدينة غرائبية خرجت من رحم الأساطير!

حدق جورج في وجهه طويلًا، قبل أن يقول له:

- وأحيانا، يبدو لي أنك مخلوق عجيب فر من سيرك غرائبي! ألا يحق لهذا الإنسان أن يُرقّه عن نفسه قليلاً؟

ضحكنا جميعاً، ومشينا فوق الرمال التي جعلتها إنارة مصابيح الكورنيش تتماهى مع أحجار كوارتز متألئة ضخمة.

رفعنا رؤوسنا نحو السماء المرصعة بالنجوم البراقة، تذكرت كابوس أماديا وانقبض قلبي حين سمعت جورج وهو ويقول:

- سيشهد كوكبنا فجر هذا الأحد خسوف القمر الدموي، الذي أتى ذكره في سفر «يوئيل»:

«تتحول الشمس إلى ظلمة، والقمر إلى دم، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم».

\*\*\*

## -0-

أفقت في ساعة مبكرة من صباح يوم الغد لأقصد «أنوال»، كان جورج قد غادر، خلت أنه قد توجه إلى عمله في الساعة السادسة كالمعتاد، خرجت من غرفة النوم لأحضر فطوري أنا وعبدول الذي كان سيبدأ مناوبته في موقف السيارات على الساعة الثانية عشرة، على حين غرة انتبعت إلى ظرف متوسط الحجم، متروك على طاولة الطعام، كانت المزهرية التي أهديتها لجورج في الليلة السابقة موضوعة فوقه.

فتحت الظرف بسرعة، وتسارعت نبضات قلبي عندما وجدت بداخله مبلغاً كبيراً من المال، مصحوباً برسالة بخط جورج، قرأت:

- «أخويّ الصغيرين: بول وعبدول..

قبل بضعة أيام، رأيت في منامي القديس الكاميروني المضحي، خادم الرب الأب سيمون، كان جالسا على ضفة نهر عظيم، وكان النور يغمر المكان، ابتسم لي وقال:

- انتهى دورك في الحياة، ولهذا سيتحقق حلمك أخيرا في الالتقاء بعائلتك حين يصير القمر كالدم.

فرحت كثيرا بهذه الرؤيا العظيمة، المُبشرة بدُنو انتهاء حياتي التي عذبتني كثيرا.. لأنه في الحقيقة لم يكن حلمي هو العبور إلى الإلدورادو، كان ذلك مجرد ذريعة، عندما قدمت إلى المغرب، كنت في حالة شبيهة بغيوبة خارج الزمن، جراء صدمتي بعد فقدي لأسرتي، هربت من أطياف الموتى الذين قضاوا في تلك المذبحة الرهيبة، إلا أنني لم أستطع إغلاق صندوق البانْدورا على أشباح الماضي، لذا، خرجت هذه الأرواح الغاضبة منه، واستمرت في ملاحقتي أينما حللت وارتحلت..

لم يكن الحلم الإفريقي الذي جمعنا هو حلمي الحقيقي، حلمي الوحيد كان هو التمكن من عبور نهر الموت لألتحق بأسرتي، لكنني حين التقيتكما، وعوضتmani قليلا عن أحبائي الراحلين، رغبت بشدة في أن أساعدكما على الاقتراب من حلمكما، لعلي حينها أكون قد قدمت لكما المساعدة التي لم أستطع تقديمها لعائلتي في ذاك اليوم المشؤوم الذي عصف بحياتي..

كثيرا ما سألت الله عن سبب بقائي على قيد شبه حياة تجلدي كل يوم بسياط الوجد المُدمية، وإن كان حقا حلمي وذريعتي هو دافعي للاستمرار

في تقمص دور الرجل الحي. بعد رؤيتي للقديس سيمون خادم الرب، توصلت إلى حقيقة أنني كنت هنا من أجلكما أنتما، ومن أجل أحلامكما، أعتبر أنني قد أدت الدور المُوكل لي من طرف الرب كما يجب، سيما بعدما اطمأنتت عليكما بعد تسوية الأم تلايْتماس لوضعيتكما.

تعبت من التظاهر بأنني واجهة مضادة لرصاص الحياة، ولهذا سأنسحب من الدنيا بهدوء، كي لا أستمر في العيش داخل عالم مُواز لعالمنا، عالم مرعب كله أطياف وأرواح تائهة..

أرجوكمما ألا تتوقفا عن الإيمان بحلمكما بعد رحيلي، وأن تتشبثا به مهما اشتدت أنواع الحياة، بول، لا تدع مزهرية حلمك المزخرفة تسقط أرضا وتستحيل شظايا، أعد إلى عبدول حاملة المفاتيح ذات حجر الأما تيست لأنه أحوج إلى الحظ مني..

آن أوان ارتمائي في أحضان الموت وفيه خلاصي، سأذهب لأقف وجها لوجه مع الحاصد الذي أخلفت مواعيدي معه، ولهذا أبقى أن يقطف روحي، سأخطى حاجز الردى، لعل أحدهم يطلق عليّ رصاصة الرحمة التي أجلتها الحياة لمدة طويلة، سأتركهم يطلقون سراح روحي المعذبة لأنه لم تكن لدي الشجاعة الكافية لأنها مجرد موت عائلتي، عساني حينها أنجح في عبور نهر الموت، والصعود على متن أحد قواربه بأقل الأوجاع الممكنة، ليوصلني حارس الموتى إلى الأبدية، حيث ينتظرنني والداي، أشقائي، حبيبتي سينثيا وملاكي ليونيل الذي لم أره لأن الحياة لم تسمح لي بالتعرف عليه..

اعذراني لأنني لم أعد قادرا على تحمل التعايش أكثر مع متلازمة الاحتراق النفسي، ولهذا، فالموت هو خيارى الوحيد. صغيريّ بول وعبدول، ممتن لكما على مشاركتكما لي أحلامكما، وعلى كل لحظة سعادة حقيقية أهديتماني إياها، أخي بول، أرجوك اعتن جيدا بكلبي الوفي بوني، وبمنحوتاتي الخشب التي أترك لك مطلق حرية التصرف فيها، كما تركت لكما مدخراتي التي تبلغ خمسة آلاف درهم على أمل أن تساعدكما قليلا في العبور إلى إسبانيا، مهما ساءت الظروف، لا تتنازلا أبدا عن حقكما المشروع في البقاء على قيد الحلم..

أرجو أن تحتفظا بمركب الحلم الإفريقي الذي سيساعدكما على العبور سالمين إلى ضفة الأمانى.

الآن، بوسعي الاهتداء إلى نور مَعْبَر الحياة الأخرى بعدما اطمأنت على أخوي الغاليين..

أتمنى أن تتفهمني وتسامحني على قراري هذا الذي تأخرت في تنفيذه، كما أتمنى من كل قلبي أن يسامحني أبونا الرؤوف الرحيم الذي في السماوات، ولا يرميني في هاوية الهلاك..

سألجأ إلى يسوع المحب، المخلص، ألم يقل: تعالوا إليّ وأنا أريحكم.

سنلتقي في الأبدية، حيث لا مكان للحزن.

وداعا أيها الرجلان الإفريقيان الحُرَّان، الرائعان..

أخوكم: جورج».

\*\*\*

## -٦-

صفعت وجهي لأستفيق من هذا الكابوس الرهيب، لكنني اكتشفت أنه كثيرا ما تكون الحقيقة أبشع بكثير من كل الكوابيس.

ركضت لأوقظ عبدول، امتقع لونه بعد إتمامه قراءة رسالة وداع جورج لنا، اتصلنا بميكائيل، سألته عن جورج وكلي أمل أن يطمئنني بقوله إنه معه في موقع البناء، للأسف، ظلت أمنيته هذه حبيسة مخيلتي، زلزلة الأمانى المستحيلة.

قدم ميكائيل بعد لحظات وجيزة، وفي عينيه سحب رمادية من القلق والهلع، ارتمى على الأريكة فور اطلاعه على الرسالة الأخيرة التي خطها جورج، وقال والدموع تنهمر من عينيه:

- كان جورج يتصرف بغرابة طيلة هذا الأسبوع، إلا أنني أرجعت ذلك إلى تعبته الناجم عن ضغوط العمل. قبل يومين، لمحته في استراحة الغداء وهو ويتحدث مع شخص أو شيء لا مرئي، اختبأت وراء إحدى السواري، وسمعته يقول: «لا داعي للحزن أحبائي، قالت الساحرة أماديا إننا سنلتقي قريبا».

أضاف ميكائيل ونحيبه يتعالى:

- ليتني عرفت يومها معنى حديثه، ساعتها كنا سننتبه إليه ونسعى جاهدين لمنعه من إيذاء نفسه.

قضينا اليوم بطوله ونحن نبحت عنه بيأس رفقة أمني تلايئماس في أحياء  
طنجة، دون أن نعثر له على أي أثر.. كأن زلزالا مدمرا قد خسف الأرض التي  
ابتلعتة.

اتصل ميكائيل بأصدقائه المهاجرين القاطنين بالمدن المجاورة، لينخرطوا  
معنا في البحث، بعدما أرسل لهم صورة جورج عبر رسائل على موقع  
التواصل الاجتماعي.

بحثنا وبحثنا.. لكن بلا جدوى.

كان الإحساس بالذنب ينهشني من الداخل رويدا رويدا، لأنني لم أنتبه إلى  
معنى آخر جملة نطقها أماديا قبل رحيلها، ولم أجد قراءة لغة الإشارات كما  
أوصتني، كما أنني لم أدرك وسط فرحي أن ليلة عيد ميلاد جورج التي مضت  
كحلم قصير.. كانت ليلة وداعه الأخير لنا.

ورغم هذا كله، تمسكت بخيوط واهية من الأمل في العثور على جورج قبل  
أن يلحق الأذى بنفسه، وقبل أن يُرديه حلمه بالعبور إلى ضفة العالم الآخر،  
لتلتقي روحه المعذبة بأرواح أحبائه الراحلين، تلك الأرواح الهائمة في برزخ  
الانتظار.

ليلة السبت، غفوت في ساعة متأخرة من فرط التعب، رغم أنني كنت حريصا  
على البقاء مستيقظا، لأطلب من الله أن يحمي عبده الضعيف جورج، ويعيده  
إلى رشده، استفتت على رنين الهاتف، كانت الساعة تشير إلى السادسة  
صباحا، تنهى إلى صوت ميكائيل وهو يقول وسط دموعه:

- مامادو، ادخل إلى موقع يوتيوب بسرعة لتشاهد قبل الحذف فيديو مسرّباً للحظة قتل مهاجر سري إفريقي على يد حرس الحدود الإسبانية بمدينة سبتة المحتلة، لقد اخترقته رصاصات بنادقهم وهو يتسلق «حاجز الموت»، حتى خضبت دماؤه تلك الأسلاك الشائكة..

أخيراً، توصلت إلى تأويل كابوس أماديا المروع..

أزددوا جورج كذباة حقيرة، مزعجة.

\*\*\*

## -٧-

رحل جورج مُنقذنا، الذي لم ينقذ نفسه، واستسلم لظلال الموت..

صباح الاثنين، أوصلتنا تلايثماش أنا وعبدول وميكائيل إلى مستودع الأموات بمدينة تطوان، القريبة من سبتة، وما أن تجاوزنا بابه الأزرق الحديد، حتى امتلأت رئتي برائحة الموت الباردة.

للموت رائحة مميزة، نفاذة، رائحة مكونة من مزيج رطوبة وعفونة معتقتين.

رافقنا ممرض إلى قاعة ثلاجات الموتى، فتح باب إحداها لنتمكن من التعرف على جثة جورج، الذي كان يبدو كأنه نائم، وعلى ثغره نصف ابتسامة لم يُمهّلها الوقت للاتساع، كانت ملامحه هادئة كقديس، لا يظهر عليها أي أثر للألم، الخوف أو الندم، بخلاف العديد من الموتى الذين رأيتهم بمسقط رأسي

تمبتكو، بدا كما لو أن الموت هو نهايته التي انتظرها، قد حرره أخيرا من حمل صخرة الأحزان التي أثقلت روحه وأرقت مضجعه لزمن طويل.

اليوم، وأنا أسترجع هذه الذكرى المؤلمة، أفكر في أن الصورة التي رأيته عليها بعد عبوره ضباب الردى، كانت انعكاس صورة جورج الحي، السعيد، قبل أن يعلق في متاهة المآسي.

لاحظت أنه كان يُحكم قبضته اليسرى على شيء ما، لامست يده الباردة كالصقيع، وحاولت أن أفتحها، فتحتها بصعوبة بالغة، وانسابت الدموع من عيني حين وجدت الجورب الصوف الخاص بابنه ليونيل الذي لم يولد، في راحة يده.

تكلفت تلايئماش بالإجراءات اللازمة لتسلم جثمانه كي يتسنى لنا دفنه في المقبرة المسيحية بطنجة.

بعد انتهائنا من مراسم تشييع جورج إلى مثواه الأخير، بدأنا حملة واسعة هدفها تنظيم مسيرة احتجاجية، سلمية، أطلقنا عليها اسم «مسيرة شموع الرحمة»، تنديدا بالجريمة النكراء التي اقترفت في حق جورج.

لقيت حملتنا تجاوبا منقطع النظير من طرف الجمعيات الحقوقية والمدنية، والأوروبيين المقيمين بالمغرب بمن فيهم المواطنون الإسبان، وطلبة الجامعات والمعاهد الخاصة المغاربة والأفارقة المنحدرين من دول جنوب الصحراء، إضافة إلى الحركة المناهضة للعنصرية «لا أدعى عرِّي».

في مساء ذلك الأحد الغائم، تجمعنا بحي فال فلوري وانطلقنا سيرا على الأقدام إلى أن توقفنا بساحة الأمم، كان ممثلو الجمعيات الحقوقية يرفعون لافتات منددة بهذا الجرم الشنيع، وكنا نحمل في أيدينا شموعا وصورا لجورج، ونردد بحرقه هتافات استنكارية ضد العنصرية، والجرائم الوحشية التي ترتكب بين الفينة والأخرى ضد المهاجرين السريين بثغرة سبتة.

كنت أردد الشعارات بحماس وغضب، حين أدت وجهي ولم أعتز على عبدول إلى جانبي، التفثُ يمينا ويسارا، لكنني لم ألمحه وسط الجمع الغفير.

لم يبدأ القلق بالتسرب إلى نفسي إلا بعد انتهاء المسيرة دون أن يظهر عبدول، بحثت عنه أنا ونورس وميكائيل في الأرجاء، اقتفينا أثره طويلا، لكنه كان قد تبخر، خشيت أن يصيبه مكروه يفقدني إياه، خصوصا بعدما تذكرت أنه انهار إثر مقتل جورج، وصار يشرد طويلا، ويصمت قبل أن ينطق بكلام غير مفهوم، كأن صدمته النفسية الشديدة عقب هذا الحادث المرعب، قد أصابته بلوثة دماغية جعلته يفقد ما تبقى من قواه العقلية.

أسقط في يدنا، وعدنا معا إلى البيت ونحن نأمل أن نجده هناك.

الكوارث تأتي تباعا..

والأحزان تتكالب علينا كعقبان جائعة، متوحشة، تنهش جثث الهالكين في صحراء الأحلام المغتالة..

في الصباح، عاد عبدول إلى البيت، وهو ويعاني من الحمى ويهذي..

سألته عما أصابه، أجابني كمن يعاني من مس شيطاني:

- ضاعت نجمتي.. اختفت ليلة عيد ميلاد جورج.. أنا السبب في موته لأنني ضيعت نجمتي الحارسة.. ولهذا أصابتنا لعنة الفقد.. بحثت عنها ليلة أمس لكنها أبت الظهور لتنير طريقنا مجددا.. علينا أن نعثر عليها بأسرع وقت، لعلنا ننجح في إيقاف دوران عجلة الموت..

عانقته وقلت له:

- هون عليك يا أخي العزيز.. أعدك بأننا سنعثر عليها عما قريب..

\*\*\*

-٨-

برحيل جورج، أحسست بأنني فقدت قطعة مني..

صعب أن أنسى الأثر الذي خلفه مروره السريع بحياتي التي غيرها جذريا، لأن شخصا مثله، يستحيل أن ننبذ ذكراه في ركن قصي من أعماقنا، ونمضي قدما في طريقنا لنحقق أحلامنا الزهرية التي فقدت الكثير من بريقها بعده.

أكثر شيء أثار في نفسي، هو أنه رحل عن عالمنا دون أن يتمكن من رؤية تجسيد حلمه بأن يُقدّر الناس فنه، وهو لا يزال على قيد الحياة، في نظري، أفسى شيء هو أن يقطف الموت روح الإنسان، قبل أن يقطف ثمار أحلامه.

تذكرت قوله لي، عقب وصولنا إلى طنجة:

- « إذا كانت لا تزال لدي أمنية في جُعبة الأمانى التي لم تتحقق، فإنني أتمنى أن يرى الناس فني ويقدروه، ولو بعد رحيلي إلى العالم الآخر».

فكرت مليًا في ما سيسعني فعله من أجل تحقيق حلمه، خصوصا أنه قد ترك لي حرية التصرف في منحواته، بعد طول تفكير، ارتأيت أن أقترح على أمي تلاميذ ابتياع واجهة زجاجية ووضعها في أحد أركان المطعم، بُغية عرض المنحوات الخشب التي صنعها جورج، وتركها كعلامة شاهدة على أنه إنسان وفنان مرهف وخلاق.

رحبت بهذا العرض، شريطة أن أسمح لها بأن تبتاعها مني بالثمن الذي تراه مناسباً، كتقدير منها لفن ونبل جورج.

ابتاعت المنحوات بثمن لم أكن لا أنا ولا جورج حتى لنحلم به، قررت أن أبعث جزءاً من المبلغ لابنة أماديا «شاد»، لأحقق حلم والدتها في التعلم، والعيش بكرامة.

رتبنا منحوات جورج على رفوف الواجهة التي وضعنا فوقها لوحة نُقش عليها:

- «إلى ذكرى جورج الغالي، الفنان الذي تمنى أن يرى الناس فنه ويقدروه، لن ننساك».

\*\*\*

كتبت محاولة شعرية قصيرة عن جورج:

- «في مساء الذكرى..

أنظر إلى طيفك الهارب من شاطئ الذكريات،

زخات مطر الحنين الخريفي تبللني..

والبحر الذي توقف عن المد بعدك،

يبكي سرا ويذكرني بأنك مررت من هنا،

منذ شهر، منذ دهر، صحبة بضع أمنيات..

لم يعد البحر بحرا.. منذ تخلفت عن موعدك معه..

لم يعد الرمل رملا.. منذ لم تطأه قدمك..

ولم أعد أجمع الصدف المتناثر على رمل الأحلام

وفاء مني لذكراك..

ترى ماذا كنت سأفعل لو ظللت هنا؟

أكنت سأقطع معك بحر المستحيل؟

وأعبر معك إلى جُزر الأمنيات؟

للأسف لست هنا..

وأنا لوحدي في شاطئ الذكريات..

لا أمسك سوى بضع أمنيات».

طلبت رأي صديقي الشاعر نورس، الذي فاجأني بمجرد أن انتهى من قراءة أسطرها الشعرية التي راقته بقوله:

- اكتب لتتحرر، اكتب مذكراتك وفيها خلاصك، «اكتب كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف حتما طريقها» كما قال الشحرور الأبيض شكري.

قلت:

- صعب أن أكتب مذكراتي بعد مرور كل هذه الأشهر.. لا بد من أن أغفل بعض الجزئيات والأحداث التي سقطت سهواً من ذاكرتي وتبخرت، ربما لتحميني من وجع الذكريات.

رد علي:

- اكتب عن رحلتك، عن الأشخاص والأحداث والأماكن التي علقْتَ بذهنك، ووشمت روحك وذاكرتك القلبية، اكتب، أريد أن أرى كيف أبدو بعينيك.

وعدته بأنني سأبدأ فوراً كتابة مذكرات رحلة حلمي، لعلي أنعتق بعدها من سجن المآسي والآلام.

شدَّ انتباهنا ريبورتاج عن معاناة الآلاف من اللاجئين السوريين في أثناء انتظارهم فتح الحدود المجرية في وجوههم، علق نورس بأسى:

- أفكر جديا في العدول عن طلب اللجوء إلى إحدى الدول الأوروبية، أرأيت كيف يسيئون إلى أبناء بلدي الشامخ؟ الآن، سأخطط للاستقرار في هذه الأرض الطيبة، في انتظار عودتي إلى سوريا الحبيبة، التي بلغ مني الاشتياق إليها وإلى ياسمينها العتيق مبلغه، متأكد من أن الشام العظيمة ستستقر أوضاعها مهما طال الزمن، وستعود كما كانت من قبل، شام المجد التليد التي ترعرعنا فيها وعشقنا أرضها وهواءها، بعدما نلم شتاتنا من أجل إعادة إعمار يبابها، سأعود إلى سوريا لأنني لن أبقى أسيرَ حلم الهجرة إلى أوروبا الذي لم يعد إلا حلما منتهي الصلاحية، لذا سأواريه الثرى.. أريد أن أعود لأستنشق رائحة الياسمين، وإذ ذاك.. ستكون لي قصيدة، لكن، «هل في وسعي أن أختار أحلامي لئلا أحلم بما لا يتحقق..» مثلما قال درويش؟

قلت له:

- سيتحقق حلمك قريبا إن شاء الله، متأكد من ذلك.

شغلت تلايئتماس قارئ الأقراص المدمجة، انبعثت منه أغنية مغربية رائعة، شرع نورس في الغناء معها:

- «وهل يا ترى يعود

طيري للعش الدافي

يغرد ع الأغصان

كيف كان أيام زمان..

يرجع لي الهنا يعود

مجدي نرفع اكتافي

ومعاه نغني للأحباب

أعذب الألحان..»

سألت أمي عن هذه الأغنية العذبة، أجابتنني مبتسمة:

- إنها أغنية «وهل يا ترى يعود» للمطرب «محمود الإدريسي»، نظمها الزجال المغربي الكبير «أحمد الطيب العليج».

قال نورس، وفي عينيه ظل دمة:

- سيعود النورس المهاجر إلى عشه حتما..

صاحت كوكو وهي تنفض جناحيها:

- يعود.. يعود!

\*\*\*

- ١٠ -

ذات صباح ممطر من أواخر شهر نوفمبر، دخلت زميلتنا علياء إلى المطعم كإعصار، وهي تشهق بالبكاء، غادرنا المطبخ بسرعة، وتحلقنا حولها لنسألها

عما حل بها، شرعت تحكي لنا وهي تسند رأسها على كتف أمنا الحنون  
تلايئتماس:

- تعبت من استغلال والدي، ومن سوء معاملة زوجته لي، توفيت أمي حين  
كنت لا أزال صغيرة، بعد طول معاناة مع مرض عضال. وبعد مرور شهر واحد  
على وفاتها، اقترن أبي بامرأة من قريته، وما أن جلبها إلى البيت، حتى بدأ  
مسلسل تعنيفها لي..

أنجبا ثلاثة ذكور، وعندما بلغت سن الرابعة عشرة، أجبرني والدي على مغادرة  
الإعدادية، لأعمل بمقهى شعبي حقير قريب من هنا، كي أساعده على تحمل  
مصاريف دراسة أخي، أجهض حلمي في إكمال دراستي، متعللا بأنه لا  
يستطيع تحمل تكاليف دراستنا نحن الإثنين، لأنه عامل بسيط في معمل  
لتصبير الأسماك..

قضيت عامين من المعاناة في ذلك المقهى المخيف، الشبيه بغابة مليئة  
بوحوش مفترسة، والذي كنت أتعرض فيه بشكل شبه يومي إلى مضايقات  
مالكه وتحرشات بعض مرتاديه المرضى، وفي كل مرة كنت أشكوفها لوالدي  
هذه الممارسات، كان يصم أذنيه ويعمي عينيه. طيلة مدة عملي بالمقهى،  
كنت أفعل المستحيل لأحمي نفسي وأحافظ على عفتي.

وذات يوم، رفعت يدي إلى السماء، وطلبت من الله أن ينقذني وينتشلني من  
ذلك المستنقع الآسن. بعد مرور بضعة أيام، استجاب الرحمن لدعائي، وبعث  
إلى أمي تلايئتماس التي ساعدتني وأنقذتني من الضياع..

تحملت كل ما فعله بي والدي طمعا في نيل رضاه، إلا أنني لم أعد قادرة على التحمل أكثر، بعدما أتى ليلة أمس ليخبرني بأنه قد قرر تزويجي لكهل زميم متزوج بامرأتين، وله منهما أبناء كثر، والطامة الكبرى أنه يعمل في تهريب البضائع الإسبانية من سبتة إلى شمال المملكة.

أفضل إلقاء نفسي في البحر اللّجّي على الارتباط بهذا العجوز المشبوه..  
أرجوكم ساعدوني!

قضينا وقتا طويلا في تهدئتها، أعطاه نورس قطعة من الشوكولاتة، وجلبت لها الخالة اعويشة كوبا من عصير الليمون، لم تتوقف عن البكاء إلا حين انفجرنا ضاحكين، بعدما قالت كوكو كأنها ترجوها:

- شقراء.. شقراء.. لا تبكي!

قالت لها الخالة اعويشة، وهي تربت على كتفها:

- الأفضل لك ألا تتزوجي أبدا مثلي، إذا كنت سترتبطين بهذا المجرم! انظري إليّ، لم يسبق لي الزواج وأعيش بسلام..

نطق سالم:

- خالتي اعويشة محقة يا أختي، هذا الحقير لا يستحقك!

قال العم عبد الله:

- مرحبا بك يا ابنتي في بيتي معززة مكرمة كواحدة من بناتي.

تدخلت أمنا قائلة:

- سأخذها معي إلى بيتي لتؤنس صغيرتي غيثة، ريثما أجد حلا لهذه  
المشكلة..

اندهشنا حين قال نورس، موجهها كلامه لتلايئتماس:

- كنت لأتزوج بها لو كان والدها سيقبل بتزويجها للاجئ مثلي، منذ زمن  
طويل وأنا أحلم بتكوين أسرة.

احمرت وجنتا علياء، وخفضت رأسها بخفر، ردت عليه تلايئتماس وعيناها  
تشعان فرحا:

- إنها فكرة رائعة! دع أمر والدها لي، إنه لا يهتم إلا للمال.

بمجرد عودتنا إلى المطبخ، قال لي نورس:

- غريب كيف أننا نترك أحيانا شلالا صافيا ينساب قربنا، ونتبع سرابا واهيا  
كخيط دخان، لأننا نصاب بلعنة تعمي أبصارنا وبصائرنا.

\*\*\*

- ١١ -

قُبيل نهاية السنة، نظمت الأم تلايئتماس في قبيلتها المظلة على المحيط  
الأطلسي، عرسا فحما لابنيها نورس وعلياء، في تلك الليلة، بدت علياء

بقفطانها الأبيض المرصع بالأحجار الكريمة، وبتاجها المتلألئ كأميرة أندلسية،  
وبدا نورس بجلبابه المغربي كفارس من العصر الأموي.

كانت علياء تلوح لنا بيديها المخضبتين بالحناء، وهي محمولة في العَمَّارية\*،  
التي ذكرتني بهوادج ملكات تمبكتو القديمات.

كان المطرب الشعبي الذي أحيا العرس يردد وسط الزغاريد التي تملأ المكان:

- «لالَّة\* علياء يا الوردة..»

وعليك يطيح\* الندى..»

قام أخي عبدول المخبول من مكانه، وانخرط في الرقص كجرادة مقصوصة  
الجناح، بعد لحظات، رجع وجلس قربي قائلاً بفرح:

- رأيت يا أخي؟ لقد تحسنت حالة رجلي بفضل الرمال السحرية!

تذكرت حديث بائعة الأمل أماديا عن الدور الذي يلعبه الاستعداد النفسي  
للشفاء في نجاح الوصفات السحرية، وضحكت.

كانت أسرة نورس الصغيرة مبهجة، وكانت تلايئتماس ترقص بسعادة  
مع طفلتها غيثة التي تحسن وضعها الصحي والنفسي كثيرا، في

---

\*العَمَّارية: هو دج تُحمَل فيه العروس.

\*\*لالَّة: كلمة من أصل أمازيغي تفيد الاحترام، معناها: سيدتي.

\*\*\*يطيح: يسقط.

حين كان والد علياء يجلس مع زوجته وأبنائه منها وهم يتابعون العرس في جمود.

قدموا لنا الحلويات المغربية المحشوة باللوز، مرفقة بكؤوس من الشاي الأخضر، انقض عبدول على الحلويات والتهمها كطفل تسلسل في غفلة من الساحرة آكلة الأطفال إلى بيتها المصنوع من الحلوى، في قصة «هانسل وغريتل»..

وأخيرا، تيقنت من أن أخي الأحق عبدول قد عاد إلى طبيعته..

\*\*\*

## -١٢-

ليلة زفاف علياء ونورس، راودني حلم غريب، رأيت أنني أسير في ثمبكتو على غير هدى، مررت قرب بئر قديمة، مهجورة، فجأة، صعد منها سرب من الحمام الرمادي.

تابعت سيري حتى وصلت إلى ضريح سيدي يحيى، تعرضت لصدمة قوية حين وجدته مدمرا ومحترقا مثلما تركته الجماعات المسلحة المُخَرَّبَة، تجسد لي طيف أماديا، كانت ترتدي عباءة بيضاء، وكانت ممسكة بشيء ما بين يديها، فتحتهما، نفخت في كفيها، طارت منهما فراشة ذات ألوان زاهية، حطت على قبة سيدي يحيى، ابتسمت لي أماديا، وقالت:

- آن الأوان لتنهي رحلتك، وتجهض حلمك، تماما كما أجهضت أمواج البحر المتلاطمة حلمي، نقب عن حلمك القديم - المنسي، وأعد إحياءه لثخلق بحزيرة في سماء الأحلام، مثل هذه الفراشة.

أخيرا، صحوت من حلمي بالهجرة إلى الإلدورادو، ذلك الحلم الآيل للذبول، والذي اكتشفت أنه لم يكن إلا أضغاث أحلام.

لا وجود لجزيرة الأحلام، إنها مجرد جزيرة وهمية شيدنا على سراها قصورنا الهشة، مستعنين في ذلك بمخيلاتنا الخصبة، وذاك البحر الذي كنا نحلم بعبوره، ليس في الحقيقة إلا مقبرة تضم مئات الأحلام الغريقة.

برؤيتي لأماديا، بدأ العد التنازلي لنهاية حلمي، الذي تعبت من حمله بين يدي كجمرة متقدة تغوص في كفي كل يوم، أكثر فأكثر.

سأقتل حلمي قبل أن يقتلني بعدما يتحول مركبي إلى مركب من لهب، لأنه في وقت ما، يلزم الإنسان التحلي بشجاعة كافية من أجل التخلي عن حلمه / وهمه، وتعويضه بحلم بديل، تلك الشجاعة التي كانت تنقصني لمدة طويلة.

ما من مكان محدد للحلم، الحياة تمنحنا دوما فرصة اختيار حلم آخر وتنفيذه في أي مكان..

تذكرت حلمي المنسي، المدفون منذ سنين في صندوق أحلامي، والذي كان هو افتتاح مطعم صغير بمدينة الغالية تمبكتو، وابتسمت، وللمرة الأولى، أحس بأنني انعتقت من أسر حلم استحال كابوسا.

\*\*\*

صرحت برغبتي في العودة إلى تمبكتو لأمي الروحية تلايتماس، ورويت لها حلمي القديم بإنشاء مطعم هناك، راققتها فكرتي، وعدتني بأنها ستمنحني مبلغا من المال لأضيفه إلى مدخرات جورج وثمان منحواته، لأتمكن من افتتاح المطعم الذي أرى فيه حلمي، ثم قالت:

- سأفتقدك كثيرا يا بُني.. لكنني مع ذلك سأساعدك على تحقيق حلمك المؤجل، اعتبرني شريكك.

بدأنا إجراءات استخراج جوازي سفرنا أنا وعبدول بمساعدة العظيمة تلايتماس، بعدما أقنعتة بالعدول عن حلمنا القاتل، والعودة إلى مالي، قائلا: إننا سنعثر هناك على نجمته الضائعة التي سبقتنا إلى تمبكتو.

فور حصولنا على الجوازين، رجوت أُمي أن ترافقنا في الليلة السابقة لرحلة عودتنا إلى زاوية الشيخ المتصوف «مولاي عبد السلام بن مَشيش العلمي»، المنحدر من شجرة المولى إدريس الشريفة.

قصدنا هذه الزاوية المباركة، دخلنا، فوجدنا شيوخ المتصوفة ينشدون أبياتا من قصيدة «الفَيَّاشِيَّة»، التي نظمها الدرويش الفقير إلى الله «سيدي بهلول الشرقي»، رددت معهم:

- «بتقدير مولاك كن راضيا.. ولا تنزعج أبدا من حرج..

جرت عادة الله في خلقه.. إذا ضاق أمر أتى بالفرج..

وكم ليلة بثُّ في كُربة.. يكاد الرضيع لها أن يشيب..

فما أصبح الصبح حتى أتى.. من الله نصر وفتح قريب..»

ختمنا بالصلاة على أشرف المرسلين:

- «اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم».

في ذلك الصباح المشمس من بداية شهر فبراير، ودعت ميكائيل بعدما شكرته على كل ما فعله من أجل جورج، ومن أجلنا، تمنيت له حظا موفقا، وتركت «بوني» في عهده.

ملأنا قارورة زجاجية برمل طنجة الذهبي، ثم حملنا حقائبنا، امتطينا سيارة تلايتماس وتوجهنا نحو مطار مدينة الدار البيضاء، لنستقل طائرتنا التي ستحلق بنا صوب مطار العاصمة باماكو.

وصلنا، عانقتني أمي الروحية وقالت:

- أعدك بأنني سأزورك عما قريب أنا وغيثة في جوهرة الصحراء، لندشن معا مطعمنا المغربي - المالي «حلم بوكتو».

حضنتُ نورس الذي أدين له بالكثير، كونه ساهم في الارتقاء بفكري وتطوير لغتي العربية، زفَّ لي خبر حمل زوجته علياء بطفلها الأول الذي اتفقا على أن يطلقا عليه اسم «مجد» إذا كان ذكرا، أو «شام» إذا كانت أنثى، هنأته

متمنيا له سعادة أبدية مع أسرته الصغيرة، قبل أن أسلمه نسخة من مذكرات رحلتي نحو الحلم بنهاية مفتوحة.

\*\*\*

## -١٤-

سأعود إلى مهد الأساطير تمبكتو لأرمم حلمي، مثلما ستعيد لجنة التراث العالمي التابعة لليونسكو ترميم ضريح سيدي يحيى.

سأعود، وأنا أحمل في يدي مزهرية حلمي، ومركب الحلم الإفريقي الذي لم تكن أشرعتة الصغيرة كافية لإيصالنا سالمين إلى ضفة الوهم.

سأعود، لأنثر بذور حلمي القديم/ الجديد بتربة مسقط رأسي، وأكتب نهاية سعيدة لحكايتي..

«للحلم بقية»...

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون،

متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: -0235688678 0235611772

هاتف محمول: 01001872290 / 01005248794 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

kayan\_publishing



kayanpublishing



KayanPublishing



Kayan.publishing



Kayanpublishing



+KayanPubishing

